

الفصل الرابع

فن الحياة

١ - الفضيلة والكماسة

يقول تاليران « لا يعرف لذة العيش من لم يعيش حوالى سنة ١٧٨٠ »^{*}
بالطبع شريطة أن يكون من أبناء الطبقات العليا ، وأن تكون مجرداً
من أى ميول للفضيلة .

وتعريف الفضيلة صعب ، فكل عصر يكيف تعريفه وفق طبيعته
وآثامه . وقد ظل الفرنسيون القرون الطوال يخفون من وطأة الاقتصار
على الزوجة الواحدة بالزنا ، كما تخفف منها أمريكا اليوم بالطلاق . والرأى
الغالى (الفرنسى) يحد الزنا المعتدل أقل إضراراً بالأسرة — أو بالأبناء على
الأقل من الطلاق . على أية حال ازدهر الزنا فى فرنسة القرن الثامن عشر ،
وكان الناس يغضون عنه عموماً . وآية ذلك أن ديدرو حين أراد فى موسوعته
أن يفرق بين « الارتباط » و « التعلق » ضرب هذا المثال : « أن الرجل يرتبط
بزوجته ، ولكنه يتعلق بخليته . »^(٢) ويقول معاصر لذلك الجيل « ان خمسة
عشر نبيلاً من بين العشرين الذين تراهم فى البلاط يعاشرون نساء لم
يتزوجوهن »^(٣) . وكان الظفر بخيلة أمراً لاغنى عنه للمركز الاجتماعى كحيازة
المال سواء بسواء . أما الحب فكان شهوانياً فى غير موارد : صورته
بوشيه فى صورة وردية ، وخلع عليه فراجونار الأناقة والرشاقة ، أما
بوفون فقال فى صراحة وحشية « ليس فى الحب شئ طيب إلا الحسد »^(٤) .

* وردت هذه الملاحظة الشهيرة فى « موسوعة الأقوال المأثورة » لمصنفها ب . دو برية
(باريس ١٩٥٩) ، ١ ، ٦٣٥ ، نقلها عن « مذكرات لتاريخ عصرى » بقلم فر . جيزو
(باريس ١٨٥٨ - ٦٨) ، ١ ، ٦ ، (١)

على أن الحب الأنبل كان يظهر هنا وهناك ، حتى في « كريبيون »
الابن^(٥) ، ومن جماعة الفلاسفة جرثو هلفتيوس على الهيام بزواجه ،
وظل دالامبير وفيما لحولى دليسيبيناس طوال تنويعات لحنها الذى أمتعها .
وقد اضطلع جان جاك روسو في هذا الحيل باصلاح للاخلاق يدعو
إليه رجل واحد . وهل نشيد كذلك بفضل روايات صسوثيل رتشر دسن ؟
وتحلت بعض النساء بالفضيلة على سبيل الموضة^(٦) fashion ، ولكن
بعضهن تقبلن في عرفان دعوة بعثت من مرقدتها ، دعوة العفة قبل الزواج ،
والوفاء بعده ، منقذة لهن من هوان استخداهن معابر اكل زير نساء ،
على أية حال لم يعد الاقتصار على الزوجة الواحدة شارة تحجل حاملها .
فقد اكتشف الفاسقون من جديد بعد أن تزوجوا مباهج قديمة في الحياة
الأسرية ، وأنه خير للرجل أن يسهر أغوار الوحدة ، من أن يظل طوال
حياته يعبث بسطح التعدد والتنوع . واستقرت نسوة كثيرات بدأت
حياتهن بنزق وطيش كأنهن سطوح لاعق فيها — حين أنجن ، وأرضع
بعضهن أطفالهن حتى قبل أن يحثن على ذلك روسو ، وكثيرا ما كان
هؤلاء الأطفال يردون هذا الصنيع بعد أن ترعرعوا في ظل محبة الأم ،
باهتمام البنين بوالديهم . ومن أمثلة ذلك أن المرشالة دلكسمبورج أصبحت
زوجة مثالية بعد شبابها المغامر ، وأخلصت أزوجها وهي ترعى روسو
في حنان كأنها أمه . وحين مات الكونت دموريا (١٧٨١) بعد أن خدم
لويس الخامس عشر والسادس عشر وعانى آلام النفي الطويل فيما بين فترتي
وزارته ، ذكرت زوجته أنهما « انفقا معاً خمسين عاما دون أن يفترقا
يوما واحدا »^(٧) ونحن نسمع الكثير جدا — والمؤلفان قد تكلما كثيرا جدا
عن النساء اللاتي أفلحن في دخول التاريخ بفضل حثن بهود الزواج ،
ولا نسمع إلا القليل جداً عن أولئك النسوة اللاتي امتنعن عن الحياة حتى
ولو خائهن رجالهن . مثال ذلك أن الآنسة كروزا . التي خطبت وهي في
الثانية عشرة للرجل الذى أصبح فيما بعد الدوق دشوازيل ، احتملت في
صبر هيامه بأخته الطموح ، ورافقتة في منفاه : فاشساد بقداستها حتى
ولبول « المرقع » . ولم تفتر محبة الدوقة درشليو لزوجها طول خياناته
الزوجية ، وكانت شاكرة لأن القدر سمح لها بأن تموت بين ذراعيه^(٨) .

وظلت الانحرافات ، والمطبوعات الفاجرة ، والبغاء على ما عهدنا . كان القانون الفرنسى ينص على الإعدام عقابا للواط ، وحدث فعلا أن لوطين احرقا فى ميدان جريف عام ١٧٥٠^(٩) . ولكن القانون كان عادة يتجاهل اللواط الاختيارى بين البالغين^(١٠) . وكانت الأخلاق الاقتصادية على حالها اليوم ، وليلاحظ القارئ الفقرة الواردة فى كتاب روسو « إميل »^(١١) . (١٧٦٢) عن غش الطعام والحمور . وكانت الأخلاق السياسية على حالها اليوم ، كان هناك الكثيرون من خدام الشعب المخلصين (مالزيرب ، وطورجو ، ونكير) ، ولكن كثيرون أيضا ممن وصلوا إلى مناصبهم بالمال أوالاتصالات ، وأثروا فى المنصب متجاوزين فى ذلك نص القانون وعاش كثير من النبلاء العاطلين عيشة الترف على دماء فلاحهم ، ولكن برالحكومة والأفراد بالناس كان كثيرا .

وكان فرنسيو القرن الثامن عشر فى جملةهم شعبا لطيفا رغم ناموس من الاخلاق الجنسية أنهلك المعايير المسيحية بصراحة . فانظر كم من الناس خفوا لنجدة روسو وتعزيتة رغم صعوبة إدخال البهجة على نفسه ، وكثيرا ما كان هؤلاء القوم الكرام ينتمون إلى الطبقة الاستقرائية التى سبها . وكانت الشهامة قد اضمحلت فى علاقة الرجل بالنساء ، ولكنها ظلت حية فى معاملة الضباط الفرنسيين لأسرى الحرب الذين من طبقتهم . كتب سموليت الخصم الترق فى رحلة له بفرنسا عام ١٧٦٤ يقول : « أنى أخص الضباط الفرنسيين بالاحترام لشهائهم وبسالتهم ، لاسيما للروح الإنسانية السمحة التى يعاملون بها أعداءهم . حتى وسط أهوال الحرب^(١٢) » . وقد صور جويا قسوة الجنود الفرنسيين على العامة الأسبان فى حروب نابليون ، ولكنه كان فى أغلب الظن مبالغا . وما من شك فى أن الفرنسيين كانوا يستطيعون أن يكونوا غاية فى القسوة ، ربما لأنهم تعلموا القسوة من الحرب وقانون العقوبات . كانوا صخابين يميلون للمشاجرت على نحو ما يفعل طلاب الكليات الذين يهاجمون خصومهم بالمدى ، وللمشاجبات فى الشوارع بديلا عن الانتخابات . فبهم عنف ونهور . يندفعون إلى الخير أو الشر دون أن يضيعوا وقتا فى التروى . وفيهم شوفينية (غلو فى الوطنيه) لا يستطيعون أن يفقهوا لم كان سائر

البشر من الهمجية بحيث يتحدثون بلغة غير الفرنسية . وقد أبت مدام دنيس أن تتعلم الكلمة الإنجليزية « الحيز » — لم لا يستطيعون كلهم أن يقولوا pain ؟ (١٣) ولعلمهم أحبوا مجد وطنهم أكثر مما أحبه أى شعب آخر . وعما قليل سيموتون بالألوف المؤلفة وهم يهتفون « يحيى الإمبراطور » .

وقد برز الفرنسيون بالطبع غيرهم من الشعوب فى آداب السلوك . صحيح إن تقاليد الأدب التى أرسيت فى عهد لويس الرابع عشر لوثها النفاق ، والكليية ، والسطحية ، ولكنها ظلت فى جوهرها حية ، وأضفت على الحياة بين الطبقات المتعلمة كياسة لا قدرة لأى مجتمع أن يضارعها اليوم . قال كازانوف « إن فى الفرنسيين أدبا جما وتلفظا كثيرا يجذب إليهم المرء للتو » ولكنه أضاف أنه لم يستطع قط أن يثق بهم (١٤) .

وقد تفوقوا على غيرهم من الشعوب فى النظافة ، فأصبحت فى المرأة الفرنسية إحدى الفضائل الأساسية التى تمارسها حتى الموت . وكان من حسن الأدب نظافة الملابس وأناقته . وكان رجال الحاشية ونساؤها يخرجون أحيانا على أصول الذوق السليم بالأسراف فى اللباس الفاخر أو الغلو فى تصفيف شعورهم . وأرسل الرجال شعورهم فى صفائر ، وهى عادة استهجنها المرشال دساكس لخطرها فى الحرب لأنها تمكن العدو من صاحب الشعر ؛ ثم يبدرون الشعر بنفس العناية التى يبدر بها نساؤهم شعورهن . وغالت النساء فى رفع شعورهن حتى خشين الرقص مخافة أن يلتقطن النار من الثريات . وقد قدر زائر فرنسى أن ذقن إحدى السيدات الفرنسيات يقع تماما فى منتصف المسافة بين قدميها وقمة شعرها (١٥) . وجنى الحساقون الأموال الطائلة بكثرة تغيير موضات الشعر . ولم تمتد النظافة إلى شعر المرأة ، لأن تصفيفه كان يستغرق الساعات ، واحتفظت جميع النساء — إلا أشدهن غلوا فى التبرج — بنفس التسريحة أياما دون أن يمسها مشط . وحملت بعض السيدات مكاشط من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، يحككن بها روسهن فى رشاقة ساحرة .

وكان ما كياج الوجه ، همدا تعميده اليوم . كتب ليويولد موتسارت إلى

زوجته من باريس في ١٧٦٣ يقول . « تسألين هل النساء الباريسيات جميلات . ولكن كيف السبيل إلى معرفة هذا إذا كن مزوقات كعرائس نورمبرج ، ممسوخات بهذه الحيلة المنفرة مسخا تعجز معه عينا الألماني السادج عن التعرف على امرأة ذات جمال طبيعي إذا رآها^(١٦) » ؟ وكان النساء يحملن مساحيق الزينة معهن ، ويحلمان بشرتهن من جديد علانية في غير حياء شائهن اليوم . وقد حمزت مدام دموناكو وجهها قبل أن تركب تمطع الجياوتين رأسها . وكانت جثث الموتى تحمل ، وتبدر ، وتحمر ، كما في زماننا . أما ثياب النساء فكانت مزيجا متحديا من الاغراءات والمعوقات : فيه فتحات النحور الواطئة ، والصدارات المخزومة ، والجواهر التي تخطف الأبصار ، والتنانير الكبيرة الفضفاضة ، والأحذية المائلة الكعوب المصنوعة عادة من التيل أو الحرير . وانتقد بوفون وروسو وغيرهما لبس المشدات ، ولكنها ظلت ضربة لازب حتى أطاحت بها الثورة .

وكان تنوع الحياة الاجتماعية ومرحها من مفاتن باريس . فكانت مقاهي بروكوب ، ولا ريجانس ، وجرادو ، تستقبل رجال الفكر والثوار ، والأثرياء ، من الرجال الباحثين عن اللهو ، والنساء الباحثات عن الرجال . أما نجوم الأدب ، والموسيقى ، والفن ، فكانوا يسطعون في الصالونات . وأبهج أقطاب النبالة أو الثروة فرساي وباريس بالمآدب والاستقبالات والمراقص . وكانت الفنون بين عليه القوم تشتمل على الأكل والحديث . فكان المطبخ الفرنسي مثار حسد أوروبا . وكان الحديث الفرنسي الذكي الظريف قد بلغ الآن من الصقل مبلغا أستنزف فيه كل المواضيع ، فقام الضجر على الإشراق ، واضمحل فن الحديث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر : فرفعت الخطابة من حرارته فوق ما ينبغي ، وسبق المتكلمون السامعين ، وأبتذلت النكتة الذكية نتيجة إسرافها ولذغاتها المستهرة . وقد ذكر فولتير — الذي كان هو ذاته قادرا على اللدغ — باريس بأن النكتة إذا نخلت من الأياقة كانت الفجاجة بعينها^(١٧) ، وذهب لاشالوتيه إلى أن « الولع بالتظرف . . . أقصى العلم والثقافة الصحيحة عن الصالونات^(١٨) » .

وكان الناس يتمشون الموبنا في الحدائق العامة ... التي لقيت النظافة
والانشذيب وحفلة بالتمثيل — أو يتبعون أطفالهم أو كلابهم ، والفتيان
الطاشون المرحون يطاردون الصبايا البارعات في التراجع عديم الحدود .
وأغلب الظن أن حدائق التويلري كانت يومها أبدع منها الآن فلنستمع إلى
وصف مدام فيحيه — لوبرون :

« كانت دار الإوبرا قريبة في تلك الأيام : على حافة الباليه — روبال .
وكان التمثيل في الصيف ينتهي في الثامنة والنصف : فيخرج عليه القوم
حتى قبل النهاية للتمشي في أرجاء الحديقة . وراج بين النساء أن يحملن
طاقات زهر كبيرة كانت هي والبودرة المعطرة التي في شعرهن تملا الجو
عبيراً بكل معنى الكلمة . وأنا أعلم أن هذه الاجتماعات كانت قبل الثورة
تمضي حتى الثانية صباحاً ثم كانت هناك حفلات موسيقية على ضوء القمر
في الهواء الطلق وكان يعتشد في المكان جمع كبير على الدوام (١٩) » .

٢ . الموسيقى

اتخذت فرنسا من الموسيقى جزءاً من « مرحها الباريسي » فهي لم نعباً
بمنافسة ألمانيا في القداسات والكورالات الحادة . وقد تجاهلت موتسارت
تقريباً حين وفد على باريس ، ولكنها نسيت التعصب لوطنيتها حين افتتحت
آذانها بالألحان الإيطالية . وجعلت من موسيقاها « مهرجانات ترفيه » .
وتخصصت في السوان تناسب الرقص أو تذكر به — كالكورانت .
والسربنده . والحيج . والحافوت . والمنويت . وكانت المرأة المحور
الذي تدور حوله الموسيقى كما دارت أخلاقها . وعاداتها . وفنونها ،
وكثيراً ما اتخذت أسماء تذكر بصورتها — كالساحرة . والساذجة ، وميمى
وكاريون دستير .

وأحب القوم الأوبرا التهرنجية في فرنسا . كما أحبوا في إيطاليا .
أكثر من الأوبرا الحادة قبل أن يأتي جلوك (١٧٧٣) . وكانت فرقة سميت
نفسها الأوبرا كوميك قد أستقرت في باريس عام ١٧١٤ : وفي ١٧٦٢

إتحدت مع فرقة الكوميدي الإيطالية . وفي ١٧٨٠ انتقلت هذه الأوبرا كوميدي الموسعة إلى مقر دائم لها في صالة فاغار . أما صاحب الفضل في إزدهارها فهو فرانسوا أندريه فيليدور ، الذي جاب أوروبا بطلا من أبطال الشطرنج ، وآلف خمسا وعشرين أوبرا ، كلها تقريبا هزلية ، مثل « سانشوبانسا » ، « وتوم جونس » ولكن فيها ذوق سليم وفن رفيع . وقد نسيت الآن أوبراته ، ولكن « دفاع فيليدور » « وتراث فيليدور » مازالا يذكران بوصفهما نقلتين كلاسيكيتين في لعبه الشطرنج وكان الباليه فاصلا محببا يتخلل الأوبرا الفرنسية ؛ هنا وجدت الرشاقة الفرنسية مجالا آخر ؛ وغدت الحركة شعرا ، قد كتب جان جورج نوفير ، أستاذ الأوبرا في دار أوبرا باريس ، رسالة كانت يوما ما مشهورة عن ألحان الرقص — « رسائل في الرقص والباليه » (١٧٦٠) ، وقد مهدت الطريق لإصلاحات جلوك بدعوته إلى الرجوع للمثل الإغريقية في الرقص ، بما فيها من طبيعية الحركة ، وبساطة اللباس ، وتأكيد على الدلالة الدرامية لا الأشكال التجريدية أو براءات العازفين .

واصبحت الحفلات الموسيقية العامة الآن جزءا من الحياة في جميع مدن فرنسا الكبرى . ففي باريس ضربت « الفرقة الموسيقية الروحية » (التي انشئت بالتوبلري في ١٧٢٥) مثلا رفيعا في الموسيقى الآلية . وبينما كانت الأوبرا — كوميك تمثل مسرحيه برجوليزي « لاسيرفا يادرونا » كانت فرقة الكونسير تعزف ترنيمة « ستابات ماطر » [وهي ترنيمة لآتينية عن حزن مريم على المسيح المصلوب] التي أحسن الجمهور أستقبالها فظلت تتكرر سنويا حتى عام ١٨٠٠ (٢٠) . وكان لفرقة الكونسير الفضل في تحبيب هاندل ، وهيدن ، وموتسارت ، وجومللي ، ويتشيني ، والباخين ، إلى الجماهير الفرنسية ، وأتاحة فرصة الظهور لكبار عازفي ذلك العهد .

وقد أجمع هؤلاء العازفون الزائرون على أمر واحد ، هو تخلف فرنسا في الموسيقى عن المانيا والنمسا وإيطاليا ، وشاطرهم جماعة الفلاسفة هذا الحكم . فسكتب جريم (وهو الماني) « من الأسف أن القوم في هذا البلد

لا يفهمون من الموسيقى غير القليل جداً^(٢١) . وكان يستثنى الأنسه فل ،
التي تغنى بمنجزة بديعة . ووافق جريم روسو وديدرو على طلب « الرجوع
إلى الطبيعة » في الأوبرا ، وتزعم ثلاثتهم الحزب الإيطالي في « حرب
المهرجين » تلك التي كانت قد بدأت بتقديم أوبرا تهريجية مثلها فرقة
إيطالية في باريس . وقد سبقت الإشارة إلى هذا الجدل الذي نشب بين
المذهبيين الموسيقيين الفرنسي والإيطالي ، ولم يكن قد أنهى بعد ، فزال
ديدرو يخوض حرب المهرجين في قصته « ابن أخى رمو » ، وفي « حديث
ثالث حول الأبن الطبيعي » (١٧٥٧) وطالب بمنقذ يخلص الأوبرا
الفرنسية من الخطب الطنانه والأساليب المفتعلة « ألا فليقدم ذلك الذى عليه
أن يعرض المأساة الصحيحة ، والمهاة الصحيحة ؛ عن المسرح الغائى ؛
وضرب مثلاً لنص صالح « إفجينيا فى أوليس » لبوربيديس^(٢٢) . ترى هل
سمع هذا النداء جلوك ، الذى كان يومها فى فيينا ؛ أما فولتير فقد كرره فى
١٧٦١ متنبئاً :

« أنا نأمل أن يظهر عبقرى أوتى من القوة ما يحول به الأمة عن هذه
الآفة [آفة التصنع والتكلف] ويضفى على الإخراج المسرحى . . . الكرامة
والروح الخلقية التى يفتقر إليها الآن . . . أن سيل الذوق الفاسد متدفق ،
وهو يغرق على غير وعى مما ذكرى ما كان يوماً ما مجد هذه الأمة . ولكنى
أكرر ثانية : يجب إرساء الأوبرا على أساس مختلف ؛ حتى لا تعود مستأهلة
لذلك الاحتقار الذى تنظر به إليها كل أهم أوروبا^(٢٣) » .

وفى ١٧٧٣ وصل جلوك إلى باريس ، وفى ١٩ أبريل ١٧٧٤ قاد هناك
أول أداء فرنسى « لافجينيا فى أوليس » . ولكن هذه القصة يجب
أرجاؤها إلى حينها المناسب .

٣ - المسرح

لم تنتج فرنسا فى هذه الفترة تمثيليات تتحدى النسيان - ربما باستثناء بعض
التمثيليات التى بعث بها فولتير من ليدليس أو فرنيه . ولكن فرنسا منحت

الدراما كل تشجيع سواء في العرض أو الاستحسان . ففي ١٧٧٣ أقام
فكتور لوى في بوردو أجمل مسرح في المملكة ، له رواق فخيم من الأعمدة
الكونتية ، ودربزين كلاسيكى ، وزخارف منحوتة . أما الكوميدي — فرانسيز ،
التي أقر جاريك بأنها خير الفرق التمثيلية في أوروبا ، فقد أنزلت « التياتر —
فرانسيز » الذي شيد عام ١٦٨٣ في شارع فوس ، بسان — جرمان — دى
— بريه : ثلاثة صفوف من الشرفات في مستطيل ضيق فرض الالتقاء الخطائى
وقرر الأسلوب الخطائى للتمثيل في فرنسا . وعرضت مئات الأسر مسرحيات
خاصة ، من فولتير في فرنيه إلى الملكة في تريانون — حيث لعبت ماري
أنطوانيت دور كولايت في مسرحية روسو « قسيس القرية » وحيث كان
« أكثر من عشر نساء من علية القوم يمثلن ويغنين خيرا من أى ممثلات
ومغنيات في الملهى »^(٢٤) ونبتت في كل مكان في فرنسا « مسارح صغيرة » .
من ذلك أن ديرا نرنارديا ، قابعا في غابات بلريس بنى مسرحا صغيرا لرهبانه
« دون علم من المتعصبين وأصحاب العقول الضيقة » (كما قال أحدهم) .

ولمع نجوم الكوميدي — فرانسيز فوق ربوع فرنسا رغم منافسة الفرق
الهاوية . وقد رأينا كيف أقبل أهل جنيف وفرنيه ليروا الممثل لوكان يمثل
فولتير في شاتلين . أما اسمه الحقيقي فهو هنرى — لوى كان Cain ، (قابيل)
ولكن هذا كان لقبا ملعونا غيره واه العذر في تغييره . كذلك لم يجلب له
وجهه الحظ ، وقد استقرت الأنسة كليرون فترة حتى تأنس إليه ولو كان
ذلك في تمثيلته ، وكان فولتير قد اكتشف مقدرته في حفلة تمثيل للهواة ،
وعلمه ، ووجد له مكانا في التياتر — فرانسيز . وفي ١٤ سبتمبر ١٧٥٠
استهل لوكان حياته المسرحية بدور تيطس في مسرحية فولتير « بروتس » ،
وظل طوال جيل بعد ذلك يمثل دور البطل في مسرحيات فولتير . وأحبه
الشيخ الغضوب إلى النهاية .

على أن أحب من إعتلى مسرح فولتير إلى القلوب كانت الأنسة كليرون
(بعد أن توفيت أدريين لكوفرير) وكان اسمها قانونا كلير — جوزيف
ليبوليت ليريس دلاتور . ولدت عام ١٧٢٣ دون زواج شرعى بين أبويها .

ولم يتوقع أهلها أن تعيش ، ولكنها عمرت إلى الثمانين — وما هذا العمر المديد بالشئ الذى تغبط عليه دائما بطلات المسرح . ولم ير أهلها أنها تستحق عناء التعليم ، ولكنها تسالت إلى التياتر — فرانسيه ، وسحرتها المناظر والخطب المسرحية ، ولم تتغلب قط تماما على الميل للخطابة حتى وهى فى نشوة الحب . وأعلنت أنها ستحترف التمثيل ، فهددتها أمها بأنها ستكسر زراعيها ورجليها ان هى مضت فى انفاذ هذه النية الآثمة ، (٢٦) ، ولكنها أصرت ، وانضمت إلى فرقة تمثيلية متنقلة . وسرعان ما تخلقت بأخلاق مهنتها . « إننى بفضل موهبتى ، وجمالى ، وسهولة الاتصال بى رأيت عددا هائلا من الرجال يركعون تحت قدمى ، بحيث استحال على وقد أوتيت قلبا رقيقا بطبعه . . . ان امتنع على الحب » (٢٧) .

فلما عادت إلى باريس فتنت المسيو دلا بوبلنير ، وقد استمتع بها ثم استخدم نفوذه ليحصل لها على مكان فى دار الأوبرا . وبعد أربعة شهور استطاعت دوقحه شاتورو ، خليعة الملك آنثذ : أن تدخلها فرقة الكوميدي فرانسيز . وطلبت إليها الفرقة أن تختار الدور الذى ستمثله أول مرة ، متوقعه منها أن تجرى على السنة المعهودة ، فتختار دورا صغيرا ، ولكنها اقترحت أن تمثل دور فيدر ، وعارضت الفرقة . ولكنها تركتها تنفذ مشيئتها . وتكللت مغامرتها بالنصر . وبعدها غدت نجم الأدوار المأساوية التى لم ينافسها فيها غير الأنسة دومنيل . وذاعت شهرتها بالفسق المقترن بشهوة الاقتناء . كانت ترفه عن لفيف من النبلاء : وتتقاضى منهم أجرا طيبا ، وتجمع مكاسبها ، ثم تعطى كثيرا منها لعشيقتها المفضل الشفاليه دجوكور ، الذى كان يحرر مقالات فى الاقتصاد للمرسوعة . كذلك دفعت ثمنا للملاطفة مارمونتييل ، الذى سالتقى به عما قليل مؤلفا لكتاب « الحكايات الخلقية » . تأمل جانب المرأة فى هذا الحب فى خطابها له : « أممكن أنك لم تعرف أى معاناة سببتها لى (على غير عمد منك ، ولكنى كابدتها رغم ذلك) ، وان هذه المعاناة ألزمتنى الفراش ستة أسابيع وأنا فى خطر كبير ؟ لا أستطيع أن أصدق أنك كنت عليما بهذا ، وإلا لما ذهبت فى صحبة بينا الناس جميعا يعرفون ما كنت فيه » (٢٨) . ومع ذلك ظلت هى ومارمونتييل صديقين حميمين ثلاثين عاما .

وهو الذى حملتها انتقاداته ومقترحاته على أن تحدث فى التمثيل حدثا .
ذلك أنها كانت إلى عام ١٧٤٨ تجرى على أسلوب ممثلى التياتر - فرانسيسه فى
الحديث المفتعل العاطفى ، والإيماءات الفخمة ، والانفعالات المرتعدة .
أما مارمونتيل فقد وجد هذا أمرا غير طبيعى يمجج الذوق . وكانت كليرون
قد قرأت كثيرا وسط غرامياتها ، وأصبحت من أفضل نساء جيلها تعليما ،
وأدخلتها شهرتها ورجاحة عقلها حظيرة المجتمع المثقف ، وأدركت أن
أفرغ الطبول هز أعلاها صوتا . وفى عام ١٧٥٢ أكرهتها إصابة بالزهرى على
اعتزال المسرح حينما . فلما أبلت قبلت عقدا بإحياء خمس وثلاثين حفلة
فى بوردو . روت أنها فى أول ليلة مثلت فيها هناك لعبت دور فيسلى
بالأسلوب التقليدى « بكل الضجيج والعجيج والحماسة التى كانت يومها
تلقى الاستحسان فى باريس » ووفق لها الجمهور استحسانا . ولكن فى
الليلة التالية لعبت دور أجريين فى مسرحية راسين بريتا نيكوس بصوت
هادىء وبحركات محسوبة ، وكظمت الانفعالات حتى المشهد الأخير .
وضمج النظارة بالهتاف . فلما عادت إلى باريس كسبت جمهورها القديم
لأسلوبها الجديد . وحيد ديدرو هذا الأسلوب بحرارة . وكانت فى ذهنه حين
كتب « مفارقة الممثل » ومؤادها أن الممثل القدير هادىء متمالك نفسه فى داخله
حتى فى أكثر لحظات أدواره انفعالا ، ثم تساءل أى تمثيل كان أروع من تمثيل
كليرون ^(٢٩) . وكانت تحب أن تصدم المعجبين بها فتروى لهم أنها
تراجع ذهنها فى فواتيرها الشهرية وهى تلقى إلى الجمهور من الأشجان
ما يستدر دموعه ^(٣٠) . ولم يرحب فولتير بالأسلوب الجديد ، ولكنه أبداها
تأييدا فعلا كما أبدته هى فى اصلاح ملابس المسرح وأثاثه . وكانت جميع
الممثلات إلى ذلك الحين يلعبن أدوارهن - من أى أمة أو عصر -
مرتديات زى باريس القرن الثامن عشر ، فى تنورات بأطواق موسعة
وشعر مبدر ، ولكن كليرون فاجأت جمهورها باتخاذ زى زمان المسرحية
لجسمها وشعرها ، فلما لعبت دور إيدامى فى تمثيلية فواتير « يتيمة الصين »
كانت اثنيات والأثاث صينية .

وفي ١٧٦٣ ذهبت كليرون إلى جنيف لتستشير الدكتور ترونشان .
وطلب إليها فولتير أن تمكث معه في فيلا دليس . « إن مدام دنتس مريضة ،
وكذلك أنا . وسيحضر مسيو ترونشان إلى مستشفانا ليعودنا نحن الثلاثة (٣١) »
وأنت ، وأعجب بها الحكيم العجوز إعجاباً حمله على إغرائها بزيارة
أطول لفرنيه ، وأقنعها بأن تشاركه في حفلات عديدة بمسرحه ويظهره
رسم قديم وهو في السبعين من عمره راكعاً أمامها في اعتراف حار
يالحب .

واعزلت المسرح في ١٧٦٦ وكانت صحتها قد اعتلت وهي بعد في الثالثة
والأربعين ، بل لم تعد قادرة على التحكم في حديثها ، وهامت حباً بفتى
نبيل أنيق كما فعلت لوكوفير وباعت كل ممتلكاتها تقريباً لتثقله من دائنيه
ورد لها صنيعها ببلد حبه ، ومالها لغيرها من النساء . ثم تلقت وهي
في التاسعة والأربعين دعوة من كرستان فريدرش كارل الكسندر ، حاكم
آنزباخ وبابرويت البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً للعيش معه في آنزباخ
ناحية وخليلة . فذهبت (١٧٧٣) وظلت محتفظة بسلطانها عليه ثلاثة
عشر عاماً ، وكان قد تشرب في فرنسا بعض مثل التنوير ، وبتشجيع منها
أجرى عدة إصلاحات في إمارته ، فألغى التعذيب وأقر الحرية الدينية .
وكانت آخر مآثرها أن أقنعت به بأن ينام كل ليلة مع زوجته . وبمضي الوقت
أصاب الملل كليرون فتاقت إلى باريس فكان الأمير يصحبها إليها بين
الحين والحين . وفي إحدى هذه الرحلات اتخذت خليلة جديدة ، وترك
كليرون في باريس بعد أن أجرى عليها معاشاً طيباً ، وكانت الآن في
الثالثة والستين .

ولقيت الترحيب في الصالونات ، حتى من مدام نكير الفاضلة ، وأعطت
الدروس في الائتماء للفتاة التي أصبحت فيما بعد مدام دستال . واتخذت
عشاقاً جدداً منهم الرجل الذي تزوج بعد ذلك مدام دستال ذاتها التي
سرّها التخلص منه . وقد رتب للممثلة العجوز معاشاً مريحاً ، ولكن
الثورة انحزلت معاشها فعاشت في ضياع حتى زاد نابليون معاشها في

١٨٠١ . وفي ذلك العام عرض عليها رجل يدعى المواطن دوبوارييه غراماً .
أخيراً . فثبّطت عزيمته بخطاب مؤلم يلخص مأساة الكثير من الممثلات العجائز .
قالت « لعل ذاكرتك مازالت تتخيلني مشرقة ، فتية ، محاطة بكل مظاهر
سمعتي الماضية . ولكن عليك أن تراجع أفكارك . فأنا لا أكاد أبصر ،
وسمعي ثقيل ولم يعد لي أسنان ، ووجهي كله غضون ، وجلدي الذي
جف بالجهد ايكسوهيكلّي الضعيف . »^(٣٢) ومع ذلك أتى وعزى أحدهما الآخر
باسترجاع ذكرى شبابهما . ثم ماتت عام ١٨٠٣ إثر سقوطها من فراشها .

وكانت قد خلفت وراءها مهندسين طويلة الدراما المأساوية الكلاسيكية
التي أشاد فولتير ، أعظم كتابها في القرن الثامن عشر ، بكليرون معبرة عنها
لا ضريب لها . فقد اتّخم جمهور باريس ، وكثرتة من الطبقة الوسطى ،
بالخطب المسجوعة يلقيها الأمراء ، والأميرات ، والملوك ، وبدأت تلك
البحور « الاسكندرية » بحور كوريني ورأسين التي تمشي مختالة على ست
أقدام (أي تفاعيل) - بدأت الآن رمزاً للحياة الأرستقراطية ، ولكن أليس
في التاريخ سوى النبلاء ؟ بلى بالطبع . ورجل كمواير أبرز هؤلاء من قبل ،
ولكن في الملهاة ، أفليس هناك مأس ، من المحن العميقة والمشاعر النبيلة في
بيوت وقلوب البشر الذين تجردوا من الألقاب ؟ ورأى ديدرو أن قد آن
أوان درامات البورجوازين ، وقال أنه إذا كان النبلاء قد تجنبوا العاطفية ،
واشترطوا لباس المشاعر قناعاً مهيباً ، فإن على الدراما الجديدة أن تطلق
الوجدان من عقاله ، وألا تنجّل من إثارة أشجان الجمهور وإدراار دموعه .
وهكذا كتب هو وغيره من بعده « مسرحيات باكية » .

يضاف إلى هذا أن العديد من كتاب المسرحيات الجدد لم يكتفوا بتصوير
حياة الطبقة الوسطى والإشادة بها ، بل هاجموا النبلاء ، والكهنة ، وحتى
الحكومة آخر الأمر - هاجموا فسادها ، وضرائها ، وبذخها ، وإسرافها ،
ولم يقتصروا على التنديد بالاستبداد والتعصب (فقد أجاد فولتير هذا التنديد
من قبل) بل امتدحوا الجمهوريات والديمقراطية ، ولقيت تلك الفقرات
أشد الاستحسان من النظارة^(٣٣) وشارك المسرح الفرنسي عشرات القوى
الأخرى في الإعداد للثورة .

٤ — مارمونتيل

كتب هوراس ولبول من باريس في ١٧٦٥ يقول « إن المؤلفين في كل مكان » وأنهم « أسوأ من كتاباتهم » ، ولست أقصد بهذا ثناء على الكتاب أو ما يكتبون ^(٣٤) » ولا ريب في أن ذلك العصر لم يكن ليضارع في الأدب عصر فولتير وراسين ؛ ولا عصر هوجو وفلوير وبلازاك ، ففي هذه الفترة القصيرة بين ١٧٥٧ و ١٧٧٤ ليس لدينا من الكتاب الجديرين بالذكر سوى روسو ومارمونتيل ، والجمرات الحية من نار فولتير ، وغليان ديدرو الدفين غير المنشور . ذلك أن الرجال والنساء أسلموا أنفسهم بقوة للحديث حتى كلت قرائنهم قبل أن يعتادوا الكتابة . وانقضى زمان العقل الاستقراطي ، واستأثرت الفلسفة والاقتصاد والسياسة بالجو ، وتغلب المضمون الآن على الشكل . لا بل إن الشعر نزع إلى الدعاية . فقد قلدت قصيدة سان - لامبير الفصول « (١٧٦٩) جيمس طومسن ، ولكنها نددت بالتعصب والترف تنديداً في غير أوانه ، وتمثلت الشتاء ... كما تمثله الملك لير ... عواصف ثلجية تقصف حول اكواخ الفقراء .

ويدين جان - فرنسوا مارمونتيل في صعود نجمه لدهائه ، وللنساء ، وفولتير . ولد في ١٧٢٣ . وقد كتب في شيخوخته « مذكرات أب » (١٨٠٤) وهي تعطينا صورة رقيقة لطفولته وشبابه . ومع أنه اعتنق الشكوكية وكاد يعبد فولتير ، إلا أنه لم يذكر إلا بالخير أهله الأتقياء الذين ربوه ، واليسوعيين العطوفين المخلصين الذين علموه . وقد أحبهم حبا جما حملاهم على أن ينلر نفسه لله ، وتطلع إلى الانضمام إلى رهبنتهم ، وعلم في مدارسهم بكليرمون وتولوز . ولكنه كالكثيرين من أفراخ اليسوعيين ، طار بعيدا على أجنحة التنوير ، وفقد على الأقل عذريته الفكرية . وفي ١٧٤٣ قدم أبياتا من شعره على فولتير فاستمتع بقراءتها أيما استماع ، وأرسل إلى مارمونتيل مجموعة من أعماله صححها بيده . واحتفظ الشاعر الشاب بها ميراثا مقدسا ، وأقلع عن كل تفكير في احتراف القسوسية . ويعد عامين حصل له فولتير على وظيفة في باريس ، وعلى إذن بدخول التياتر ... فرانسية مجانا ، لا بل

إن فولتير ، بما في قلبه - قلب الألب المحروم من البنين - من طيبة مستنيرة .
باع قصائد مارمونتيل وبعث إليه بخصيلة البيع . وفي ١٧٤٧ قبلت تمثيلية
مارمونتيل « دنيس الجبار » (دبونيسيوس) - التي أهداها إلى فولتير ،
وأخرجت على المسرح ، وحقق نجاحاً لم يحلم به « فقد أصبحت » مشهور
وغنيا في يوم واحد . (٣٥) وسرعان ما أصبح سبعا صغيراً من سباع
الصالونات ، فطعم على موائدها ، ودفع الثمن ذكاء وظرفاً ، ووجد سبيلاً
إلى فراش كليرون .

وآتته تمثيلية الثانية « أريستومين » بمزيد من المال ، والأصدقاء ، والتحليلات .
وفي ندوات مدام دتنسان التقى بفونتنيل ، ومونتسكيو ، وهلفتيوس ،
وماريفو ، وعلى مائدة البارن دولياخ سمع ديدرو ، وروسو ، وجريم
وشق طريقة صعداً في المجتمع تحدوه يد النساء المرشدة . وأدخل إلى البلاط
بعد أن مدح لويس الخامس عشر بأبيات ذكية . وافتتحت بومبا دور بوجهه
الملبح وشبابه المتفتح ، فأقنعت أخاها بأن يستخدمه سكرتيراً ، وفي ١٧٥٨
عينته محرراً للجريدة الرسمية « مركير دفرانس » وكتب نصاً لرامو ،
ومقالات للموسوعة . وأعجبت به مدام جوفران إعجاباً حملها على أن تقدم
له مسكناً مريحاً في بيتها ، حيث عاش عشر سنوات ضيفاً بالأجر .

وقد كتب لصحيفة المركير (١٧٥٣ - ٦٠) سلسلة من « الحكايات
الأخلاقية » رفعت تلك الدورية إلى مقام الأدب . ومن إحدى هذه
الحكايات تكون فكرة عنها كلها . فسلیمان الثاني ، بعد أن مل المباحج التركية ،
يطلب ثلاث حسان أورييات . أما الأولى فتقاوم شهراً ، ثم تستسلم أسبوعاً
ثم تنجى جانباً . وأما الثانية فتغنى غناء رخياً ، ولكن حديثها منوم . وأما
الثالثة - روكسالانا - فلا تكتفى بالمقاومة ، بل تسب السلطان لأنه داعر مجرم
ويصبح السلطان « أنسيت من أنا ومن أنت ؟ وتجب روكسالانا » أنت قوى ؛
وأنا جميلة ، فنحن إذن صنوان . « وهي ليست بارعة الجمال ، ولكن لها
أنفاً أخنس (مرتفع الأريية) ، وهو يغلب السلطان على أمره . فيحاول
بكل الحيل أن يكسر مقاومتها ولكنه يفشل . ويهدد بقتلها ، فتقترح أن تعفيه .

من هذا العناء بالانتحار . ويسبها ؛ فتسبه سبا أقذع . ولكنها تخبره أيضاً أنه جميل ، وأنه لا يحتاج إلا لإرشادها لكي يصبح في روعة الفرنسيين . فيغتاض ويبتهج . وأخيراً يتزوجها ويجعل منها مليكة . وفي أثناء حفل الزفاف يسأل نفسه « أيمكن أن يطيح أنف أخنس صغير بقوانين امبراطورية ؟ » (٣٦) والعبرة عندما ما رمونتيل : إن صغار الأشياء هي التي تحدث جلائل الأحداث ، ولو عرفنا تلك التوافة الخفية لراجعنا التاريخ مراجعة كاملة .

وسارت الأمور كلها تقريباً رخاء مع ما رمونتيل إلى أن نشر (١٧٦٧) قصة سماها « بيليزير » . وكانت قصة ممتازة ؛ ولكنها دافعت عن التسامح للدين ، وتشككت في « حق السيف في أن يبيد الحرطقة ، والألحاد ، وعدم التقوى ؛ وأن يضع العالم كله تحت نير الدين الحق » (٣٧) . وادانت الصوربون الكتاب لا محتوائه على تعليم يستحق الشجب . ومثل ما رمونتيل أمام عميد الصوربون واحتج عليه قائلاً « قسلى ياسيدى ، أأست تدين الآن روح العصر لا روحى » (٣٨) ، « وظهرت روح العصر في جرائده ، في اعتدال العقوبة . ولو نشر قصته تلك قبل عشر سنوات لزج به في الباستيل ولصودر — كتابه ؛ أما الآن فالذى حدث هو أن القصة راجت رواجاً كبيراً ؛ وظلت تحمل « إذن الملك وامتيازه » وأكتفت الحكومة بالتوصية بأن يلزم الصمت حول الموضوع » (٣٩) ، على أن مدام جوفران إنزعجت كثيراً حين لم يقتصر الأمر في قرار الصوربون بمصادرة الرواية على قراءته في الكنائس ، بل تجاوزه إلى تعليقه على باب بيتها . فاقترحت على مارمونتيل في لطف أن يبحث عن مسكن آخر .

ووقع واقفاً كالعادة . ففي ١٧٧١ عين مؤرخاً رسمياً ملكياً براتب حسن ، وفي ١٧٨٣ أصبح السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية ، وفي ١٧٨٦ عين أستاذاً للتاريخ في الاليسيه . وفي ١٧٩٢ حين كان في التاسعة والستين وقد قززته إنحرافات الثورة ، إعتكف في أفرو ؛ ثم في أبلوفيل ؛ وهناك كتب « مذكراته » التي اغتفر فيها حتى للصوربون إساءاتها . وقضى سنواته الأخيرة في فقر لا يشكو ولا يتذمر ، شاكراً لأنه عاش حياة غنية ممتعة . ومات في آخر يوم في عام ١٧٩٩ .

٥ — حياة الفن

(١) النحت

كان الملك ذواقه في الفن ، وكذلك كان نبلاء بلاطه ونبيلاته ، والمليونيرات الذين كانوا الآن يتحرقون شوقا للهيمنة على الدولة . وكان حدثا هاما في التاريخ الفرنسي أن تبدأ مصانع سيفر ، التي أسستها مدام دبوبادور من قبل ، إنتاج الخزف الصيني القاسي العجيبة عام ١٧٦٩ ، ومع أن الإلمان في درسدن وما يسن قد فعلوا هذا قبل ستين عاما ، فإن منتجات سيفر سرعان ما كسبت سوقا أوروبية . ولم ير كبار الفنانين أمثال بوشيه ، وكافيري ، وباجو ، وبيجال ، وفالكونيه ، وكلوديون ، ما يغض من قدرهم في رسم التصميمات لصيني سيفر . واستمر خزاfo سيفر ، وسان كلو ، وشانتيي ، وفانسين ، في إنتاج القاشاني والصيني الطري العجيبة في رسوم غايه في الإتقان .

وتضافرت مهارات الخزافين ، وصناع المشغولات المعدنية والأثاث الخشبي وقطع النسيج المرسومة ، لتجميل الحجرات الملكية وغرف النبلاء واقطاب المال . وكانت "ساعات الجدارية ، كتلك التي صممها بوازو وصنها جرتير بالبرونز"^(١) إحدى حلقات العصر المميزه . وأبدع بير جونتير وجاك كافيري في صناعة « الأورمولو » ومعناه الخزفي « الذهب المطحون » ، وهو في حقيقته سبيكة أهم مكوناتها النحاس الأحمر والزنك ، تنمش وترصع بالجوهر ويكفت بها الأثاث . وألف كبار صناع الأثاث نقابه قوية تعزز بنفسها ، اشترط على عضائها أن يهتموا لإنتاجهم بأسمائهم علامة على مسئوليتهم عنه . وكان خيرهم في فرنسا وافدا من ألمانيا : جال فرنسوا أوبن وتلميذه جان — هنري ريزنر ، وسخر هذان مهارتهما في صنع مكتب فخم للملك لويس الخامس عشر (١٧٦٩) ، وهو تحفة روكوكية معربله من رسوم ونقوش وتطعيم وتذهيب دفع الملك ٦٣,٠٠٠ ايره ثمنا لها.

وقد استمتع بها نابليون الأول ونابليون الثالث ، وسلمت إلى اللوفر في ١٨٧٠
وتقدر الآن بنخمسين ألفاً من الجنيهات (٤١) .

في هذا العهد الذي علق مثل هذه الأهمية على القيم اللمسية ، كان النحت
يقدر بقدره الكلاسيكي تقريباً ، فالشكل له ، وكانت فرنسا تعلم أن
الشكل ، لا اللون ، هو روح الفن . وهنا أيضاً فاقت النساء الآلهة ، لا في
عيوب الواقع الطبيعية ، بل في المثالي من الأشكال والثياب التي استطاع
النحاتون المرفهون الحس أن يؤلفوا بينها ويصوروها . ولم يزين النحت
القصور والكنائس فحسب ، بل الحدائق والمتزهات العامة ، وكانت
التمائيل التي أقيمت مثلاً في حدائق التويلري من أحب التماثيل إلى الناس في
باريس ، وقلدت بوردو ، ونانسي ، وورين ، ورامس ، باريس في التراكوتا
(الطين النضيج) والرخام والبرونز .

وأخرج حيوم كوستو الثاني الآن أروع إنتاجه (وكان يصغر العهد
بسنة واحدة فقط) ففي ١٧٦٤ عهد إليه فردريك الثاني بنحت تماثيل
لفينوس ومارس إله الحرب ، وفي ١٧٦٩ أرسلها كوستو إلى بوتسدام لقصر
صانوسى . كذلك بدأ في ١٧٦٩ تحت المقبرة الفعخة المشيدة للدوفين
والدوفينة (والذى لويس السادس عشر) لكاتدرائية صانوس ، وعكف
على هذا العمل بهمة إلى أن مات (١٧٧٧) . ورأى في أخريات عمره
ظهور أربعة نحّاتين من ألمع من عرفتهم فرنسا إلى يومنا هذا ، وهم بييجال
وفلاكونيه ، وكافيري ، وباجو .

أما بييجال فقد قصد روما على نفقته ، يعينه على ذلك كوستو ، بعد أن أخفق
في نيل « الجائزة الكبرى » التي تدفع لنائلها مصروفات تعامه الفن في روما .
فلما عاد إلى باريس شق طريقه إلى أكاديمية الفنون الجميلة برأئته المسماة
« عطار د يثبث خفيه » ، هذه الرائعة التي صاح الفنان للعجوز جان — باتست
لموان حين رآها « وددت لو كنت راسمها ! » كذلك أعجب بها لويس
الخامس عشر ، وأرسلها إلى حليفه فردريك الثاني في ١٧٤٩ . وقد وجدت
سبيلها بطريقة ما عوداً إلى اللوفر ، حيث نستطيع أن نتأمل المهارة الفائقة

أتى ألمع بها الفنان الشاب إلى لفظة الرسول الأولي على النهوض والانطلاق .
ووافق فن بيجال مزاج مدام دبومبادور ، فعهدت إليه بالكثير من المهام .
وقد صنع لها تمثالا نصفيا ، محفوظا الآن بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك ،
وحين هدأ ما بينها وبين الملك من غرام مشبوب واستحال إلى صداقة ، نحت
لها تمثالا على هيئة « ربة الصداقة » (١٧٥٣) . (٥٠) وصنع تمثالا للويس
بوصفه مجرد « مواطن » للميدان الملكي برامس ، وأتم تمثال بوشاردون
« لويس الخامس عشر » للميدان الذي يسمى الآن ميدان الكونكورد . وصور
ديدرو في البرونز ، رجلا تمزقه الفلسفات المتصارعة . ولكنه أطلق لنفسه
عنان التمثيل في المقبرة التي نحتها لرفات المرشال دى دساكس بكنيسة القديس
توما بستراسبوج — فهو المحارب العاشق يركب إلى الموت كأنه راكب إلى
معركة ينتصر فيها .

أما أشهر التماثيل الذي كان حديث الناس في هذا العهد فذلك الذي اختارت
صفوة مفكرى أوربا بيجال لينحته لفولتير . وقد اقترحت مدام نكير في
أحدى أمسياتها في ١٧ ابريل ١٧٧٠ ورحب بالاقترح جميع ضيوفها السبعة
عشر (ومنهم دالامبير ، وموريللية ، ورينال ، وجريم ، ومارمونتيل)
ودعى عامة الناس للمساهمة في النفقة . وأثيرت بعض الاعتراضات ، إذ لم
يكن من المؤلف إقامة التماثيل لأى أحياء سوى الملوك ، ولم يصنع تمثال
لكورنى أو راسين قبل موتهما . ورغم ذلك تدفقت التبرعات ، حتى من
نصف ملوك أوربا ، وأرسل فردريك ماثي جنيه ذهبي لتخليد ذكرى
صديقه وخصمه القديم . وأستاذ روسو في المساهمة ، فاعترض فولتير ،
ولكن دالامبير اقنعه بالموافقة . وعرض فريرون ، وبالايسو ، وغيرهم من
خصوم جماعة الفلاسفة أن يشاركوا في التحية ، ولكن عرضهم رفض .
ووضح أن الفلاسفة كانوا أبطأ من خصومهم مغفرة وصفحا . أما فولتير
نفسه فقد نبه مدام نكير إلى أنه لا يصلح موضوعا لتمثال :

« لقد بلغت السادسة والسبعين ، ولم أكد أتماثل للشفاء من مرض عبت
بجسدى وروحي عبثا منكرا ستة أسابيع . ويقولون إن مسيو بيجال قادم
ليصنع تمثالا يحكى محياى . ولكن هذا يا سيدتى يقتضى أن يكون لى محيا ،

ومن العسير التكهّن بالموضع الذى كان فيه هذا الهيا . فعيّناى غائران ثلاث بوصات ، وخدّاي من الرق البالى الملتصق لصقاً سيّثاً على عظام لا تتركز على شىء ، وقد فقدت الأسنان القليلة التى كانت لى . وليس كلامى هذا من قبيل التمتع ، ولكنه الصديق الخالص . ولم ينحت قط تمثال لرجل مسكين فى حالتى هذه ، ولعل مسيو بيجال سيعتقد أنكم تهزأون به ، أما أنا فينبغى أن يكون عندى من حب الذات ما لا أجروّ معه أبداً على الظهور فى حضرته . ولو شاء أن يضع حداً لهذه المهمة الغريبة . لنصحتّه بأن يأخذ نموذجاً ، بتغيرات طفيفة ، من تمثال الصغير المصنوع من صينى سيفر^(٤٣) .

وضاعف بيجال المشكلة باقتراحه ان يصنع تمثالاً عارياً لذلك العفريت الأشهر ، ولكنهم ثنوه عن هذا الرأى . وقصد فرنیه فى يونيو ، وجلس إليه الفيلسوف الحجول ثمانية أيام ، فى قترات متقطعة ، ولكن فى تملل شديد — يمل على سكرتير ، ويومئ للإيماءات وينفخ حبات البسلا على أشياء شتى فى الهجرة — حتى قاربت أعصاب المثال على الانهيار^(٤٤) . فلما غاد إلى باريس بقالب للتمثال عكف على مهمته شهرين ، ثم أعلن النتيجة فى ٤ سبتمبر ، وأقبل نصف الصفوة الممتازة يعجبون ويتسمون . والتمثال يقوم الآن فى دهليز مكتبة المعهد .

ولم يكن من مزاحم لبيجال فى زعامة النحت فى هذه الحقبة غير إتيين موريس فلاكونيه ، ويروى ديدراو قصة لطيفة عن خصومتها . ذلك أن فلاكونيه الذى كان يصغر غريمه بغامين تجنب أول الأمر منافسته مباشرة ، فكان يصنع التماثل من الصينى ، وكان من أبهج هذه التماثل تمثال « بجاليون » الذى صنعه دورو على تصميم فلاكونيه ، وفيه تبدو دهشة النحات الاغريقى إذ ينحني تمثاله « غلاطية » المرمى للتحديث إليه . واستطاع ذاك التمثال أن يرمز إلى حقيقة أوشك الناس أن ينسوها ، وهى أنه ما لم ينحدر لاينا العمل الفنى فهو ليس بفن . فلما اطلع بيجال على هذه القطعة من الطين وقد تحولت إلى رمز خالد فاه بالثناء التقليدى بشىء به فنان عظيم على آخر : « وددت لو كنت صانعه ا » ولكن فلاكونيه لم يرد التحية بمثلها تماماً حين

رأى تمثال بيجال « لويس الخامس عشر مواطناً » فقد قال « اننى لا أحبك يا ميسيو بيجال ، وأعتقد أنك تبادلنى هذا الشعور . وقد رأيت تمثال « المواطن » الذى صنعته . لقد كان ممكناً خلق هذا العمل ، لأنك قمت بهذا فعلاً ، ولكنى لا أعتقد أن الفن يستطيع أن يجاوزه بخط واحد وهذا لا يمنعنا من أن نظل كما كنا^(٤٥) .

وقد نغصت عيش فلاكونيه أربعون سنة من المحن قبل أن يظفر بالتقدير التام ، فانطوى على نفسه وعاش فى بساطة ديوجينية ، وأصبح سريع الشجار ، وغض من قدر فنه ، وأعرب عن احتقاره للشهرة سواء فى حياة صاحبها أو بعد موته . وافته الشهرة آخر الأمر بتمثاله « المستحمة » (١٧٥٧) — وهى مستحمة جميلة تجس حرارة الماء بأصابع قدمها .^(٤٦) وآنست إليه الآن مدام دهمبادور ، فنحت لها « الحب الداهم » الذى يمثل كيوييد يهدد باطلاق سهم فيه عدوى الحب . وأصبح فلاكونيه حيناً فى عالم النحت ما كانه بوشيه وفراجونار فى عالم التصوير مبدعاً دغدغات فتاته مثل « فينوس وكيوبد » ، « وفينوس تخلع ثيابها أمام باريز » .

وقد أبدع فى تصميم الشمعدانات الزينية ، والنوافير الصغيرة ، والتماثيل الدقيقة ، وحفر الرخام « ساعة ربات الحسن الثلاث » المحفوظة الآن فى اللوفر ، وأبهج بومبادور بتمثيلها فى صورة الموسيقى^(٤٧) . وفى ١٧٦٦ قبل دعوة كاترين الثانية له للذهاب إلى روسيا . وقد صنع فى سانت بطرسبورج رائعة « بطرس الأكبر على نجواد يخطر » ، وشارك ديدرو وجريم حظوتهما عند الأمباطورة ، وعمل لها بهمة طوال اثنى عشر عاماً ، ثم تشاجر معها ومع وزرائها ، ورحل فى نوبة غضب عائداً إلى باريس . وفى ١٧٨٣ أصيب بالفالج ، ولزم حجرته فى الأعوام الثمانية الباقية له ، وقد زادت نظرته إلى الحياة اكتئاباً .

أما جان — جاك كافيرى فكان فى وسعه أن يكون أكثر بشاشة وانشراحاً لأنه ربى على النجاح فى رعاية أبيه جاك ، الذى كان من أئمة — صناع البرونز فى العهد الأسبق . وقد شق طريقه مبكراً إلى أكاديمية الفنون

الحميلة بتمثال عجوز لا تكسوه غير سبله سماه « النهر » . وكلفه مسرح الكوميدي - فرانسيز بتزيين قاعاته بتماثيل نصفية للمسرحيين الفرنسيين ، فأبهج الناس جميعاً بتماثيله التي صورت كورني ، وموأيير وفولتير ، في صور مثالية . أما رائحته فتمثال نصفي للكاتب المسرحي جان دروترو نقله عن حفر في حوزة الأسرة . وهو أشبه بدارتنيان في كهولته - شعر مرسل ، وعينان متقدتان ، وأنف مشاكس ، وشوارب كثة ، وهو من أبدع التماثيل النصفية في تاريخ النحت . وبدافع الغيرة من مسرح الكوميدي - فرانسيز ، كلفت فرقة الأوبرا كافيري بأن ينحت التماثيل لأبطالها هي أيضاً ، فصنع التماثيل النصفية للوللي ورامو ، ولكن هذه التماثيل اختفت . وبقيت لوحة جميلة لفتاة صغيرة^(٤٨) . ربما كانت من أعضاء فريق باليه الأوبرا ، وهي توفيق ساحر جمع بين العيين الحجولتين والصدر الناهد .

أما أحب المثالين لمدام دوباري فهو أوجستن باجو . فبعد أن قضى الفترة المألوفة لتلمذة الفنانين في روما ، حقق ثراء مبكراً بمسا تلقى من مهام ملكية وتكليفات من خارج فرنسا . وقد صور الخليفة الجديدة في نحو اثنتي عشرة لوحة . ويرتدي التمثال المحفوظ باللوفر رداء كلاسيكياً منقوشاً نقشاً رائعاً . وصور بوفون للجاردان دروا بناء على طلب الملك^(٤٩) ، ثم نخلد ديكارت ، وتورين ، وبسكال ، ونوسوبه ، وأروع أعماله مازال حياً في الصور البارزة التي حل بها أسفل المقصورات في دار الأوبرا بفرساي . وعمر حتى قام بأعمال اللويس السادس عشر ، وبكى على إعدام ذلك الملك ، وشهد نابليون ببسط سلطانه الشامل على القارة .

ب - العمارة

هل قامت في فرنسا خلال هذه الأعوام الثمانية عشر عمارة خالدة؟ لم يبق إلا القليل . فالكنائس كانت أوسع من أن يملأها من بقي من المؤمنين . والقصور أخذت تثير غيرة الجماهير التي طحنها الجوع . وكان تجدد الاهتمام بالمعمار الروماني نتيجة للحفائر التي أجريت في هركولانيوم (١٧٣٨) وبومبي (١٧٤٨ - ٦٣) يدعم إحياء الطرز الكلاسيكية الخطوط ذات البساطة

والوقار ، وواجهة الأعمدة والقوصرة ، والقبة الفسيحة أحياناً . وكان جاك-فرانسوا بلوندل ، الأستاذ بالأكاديمية الملكية للعمارة ، نصيراً متحمساً لهذه الأشكال الكلاسيكية ، وأصدر خلفه جوليان — دافيد لروا ، في ١٧٥٤ ، رسالة سماها « أجمل آثار الإغريق » زادت من سرعة الانتشاء بهذه الآثار . وقد نشر آن — كلود تيبير ، كونت دكايلوس ، بعد أن ساح كثيراً في إيطاليا واليونان والشرق الأدنى (١٧٥٢ — ٦٧) ، ثمانية مجلدات خطيرة سماها « مختارات من الآثار المصرية ، والأثروسيكية ، واليونانية ، والرومانية ، والغالية » موضحة في عناية ببعض رسومه ؛ وتأثرت دنيا الفن الفرنسي كلها حتى السلوك الفرنسي ، تأثراً قوياً بهذا الكتاب فالت إلى نبذ شطحات الباروك ونزوات الروكوكو رجوعاً إلى خطوط الطرز الكلاسيكية الأكثر نقاء. وهكذا نجد جريم يقول لقرائه في ١٧٦٣ :

« ظللنا سنوات نبحث بحثاً جاداً عن الآثار والأشكال القديمة وأصبح الميل لها عاماً حتى عدا من الأمور المقررة الآن أن يؤدي كل شيء على الطريقة اليونانية *à la grècque* من العمارة إلى صنع القبعات ، فنساؤنا يصفقون شعورهن على الطريقة اليونانية ، ووجهائنا يرونه عاراً إن لم يمسكوا علبة صغيرة على الطريقة اليونانية »^(٥١) .

أما ديدرو ، رسول الرومانسية البورجوازية ، فقد استسلم فجأة للموجة الجديدة (١٧٦٥) حين قرأ ترجمة لكتاب وئكلمان « تاريخ الفن القديم » وكتب يقول « ينخيل إلى أننا يجب أن ندرس القديم لكي نتعلم رؤية الطبيعة »^(٥١) . وكانت هذه العبارة في حد ذاتها ثورة .

وفي ١٧٥٧ بدأ جاك — جرمان سوفلو بناء كنيسة القديسة جنيفيف ، التي نذر لويس الخامس عشر خلال مرضه في متز أن يشيدها للقديسة راعية باريس حالما يتمثل للشفاء . وأرسي الملك بنفسه حجر الأساس ، وأصبح بناء هذا الصرح « الحدث المعماري العظيم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر » في فرنسا^(٥٢) . وقد صممها سوفلو على شكل معبد روماني ، برواق من قوصرة منحوتة وأعمدة كورنثية ، وأربعة أجنحة تلتقي في صليب يوناني

في خورس أوسط تحت قبة ثلاثية . واتسمت كل مرحلة تقريباً من مراحل البناء بالحدل . ومات سوفلو في ١٧٨٠ بعد أن أزهقته وقتت في عضده الهجمات التي شنت على تصميمه ، وخلف البناء ناقصاً . وتبين أن الركائز التي صممها لتحمل القبة أضعف من أن تحملها ، فأحل شارل-اتين كوفلييه محلها دائرة — من الأعمدة تفوقها جمالا . وحولت الثورة هذه الرائعة من روائع إحياء الفن القديم من هدفها الديني إلى هدف دنيوي ؟ فسمتها من جديد البانتيون ، تذكراً لرائعة ماركوس أجريبا في روما ، لتكون مشوى لـ « جميع آلهة » النظام الجديد ، حتى فولتير ، وروسو ، ومارا ، ولم تعد كنيسة مسيحية ، بل غدت مقبرة وثنية ؛ وقد رمزت في عمارتها ومصيرها إلى انتصار الوثنية المطرد على المسيحية .

وأحرز الشكل الكلاسيكي نصراً آخر في كنيسة المادلين (المجدلية) الأولى التي بدىء تشيدها عام ١٧٦٤ ، فحلت صفوف الأعمدة والأجنحة المستوية السقوف محل العقود والبواكي ، وغطت الخورس قبة . وأطاح نابليون بها كلها قبل أن تنجز لتحل محلها كنيسة المادلين التي تتبوأ مكانها اليوم والتي هي أشد إمعاناً في الكلاسيكية .

كان هذا الانقلاب إلى الطرز الكلاسيكية الوقورة ، بعد إسراف الباروك المتمرد في عهد لويس الرابع عشر وإناقة الروكوكو اللعوب في عهد لويس الخامس عشر ، جزءاً من الانتقال إلى « طراز لويس السادس عشر » في عهد لويس الخامس عشر نفسه — وهو طراز البناء ، والأثاث ، والزخرفة الذي سيتخذ اسم الملك الذي أطاحت الجيلوتين برأسه . وضبط الفن نفسه فتحول عن المنحنيات الكثيرة والزخارف المسرفة إلى البساطة المقتصدة ، بساطة الخطوط المستقيمة والشكل البنائي . وكان اضمحلال المسيحية قد انتزع من التسامي القوطي المفرط قلبه ، ولم يترك للفن ملاذاً غير تحفظ رواقى تجرد من الآلهة وتشبث بالأرض .

أما أعظم المعماريين الفرنسيين في هذا الجيل فهو جاك — آنج جابريل ، الذي أورثه أسلافه العمارة في عروقه . عهد إليسه لويس الخامس عشر

(١٧٥٢) بإعادة بناء قلعة قديمة في كومبيين ، فجعل مدخلها ببوابة إغريقية ذات أعمدة دورية ، وكورنيش بدنطيل (مسنن) ، ودرازين خال من الزخرف . ونهج هذا النهج من التصميم في إعادة بناء الجناح الأيمن في قصر فرساي (١٧٧٠) . وأضاف لهذا القصر (١٧٥٣ - ٧٠) داراً أنيقة للأوبرا . وبفضل الأعمدة المستوية ، والكرانيش الرقيقة النقوش ، والدرازين الجميل ، أصبحت هذه الدار من أجمل المباني الداخلية في فرنسا . وحين سُمّ لويس ما في حياة البلاط من علنية وتكلف ، لجأ إلى جابريل ليبي « بيتاً صغيراً » تستره الغابات واختار جابريل موقعاً يبعد ميلاً عن القصر ، وشاد عايه بطراز النهضة الفرنسية « البتي تريانون » (١٧٦٢ - ٦٨) . هنا كانت بومبا دور تمنى النفس بالاستمتاع بحياة العزلة والدعة وهناك مرحت دوباري وقصفت برهة ، ثم جعلته ماري انطوانيت منتجها المفضل كأنها الراحية الملكية في تلك الأيام الحلية السعيدة والشمس ما تزال تشرق على ربوع فرساي .

ج - جروز

كانت الصورة حاية أثيرة في جو البيوت الأرستقراطية الحميم . فالتماثيل باردة عديمة اللون ؛ تسر العين والعقل دون القلب والنفس ، أما الصور فتستطيع أن تعكس تقارب الأمزجة والأذواق ، وأن تنقل الروح إلى الأماكن الخلوية ، أو الأشجار الظليلة ، أو المشاهد النائية والجسد باق داخل الجدران . وهكذا نرى كلود - جوزف فرنية يرسم من السفن التي تمخر عباب البحار الفرنسية عدداً بلغ من كثرته إن لويس الخامس عشر قال في نكتة مشهورة إنه لا حاجة به لبناء المزيد منها . واستأجرت الحكومة الفرنسية فرنية ليزور الشهور ويرسم السفن الراسية فيها ، ففعل ، وجعل فرنسا فخورة بأساطيلها . وحصل ديدرو على إحدى صور قرنيه للبحر والأرض ، وغلا في تقديرها غلوا حتى لقد توسل إلى إله إرتجمله إيجالا فقال « أنى أتخلى لك عن كل شيء ، فخذاه كله ، إلا فرنیه^(٥٣) » . - وهناك أومير روبير ، الذي لقب « روبير الاطلال » نعم كله لأنه زود كل صرر مناظره الطبيعية تقريباً بالأطلال

الرومانية مثل « كويرى جار فى نيم » ومع ذلك كان القوم « يتهافتون عليه » فى صالونات باريس كما تؤكد لنا مدام فيجيه — لوبرون ، رغم شغفه المدمر بالأكل^(٥٤) . ثم هناك فرنسوا — أوبر درواى ، الذى حفظ لنا فى تصوير مرهف جمال المركيزة دسور والطفواة البريئة للغلام الذى سيصبح شارل العاشر ولاخته ماري أدليد^(٥٥) . ولكن لنلق نظرة أكثر تدقيقاً على جروز وفراجونار .

أما جان — باتيست جروز فقد صنع بفرشانه ما صنعه روسو وديدرو بقلمهما ؛ إذ أضفى على الوانه إشراق العاطفة ، وجعل نفسه « آيلز » البورجوازية . فالعاطفه أسعد من التكلف والصقل ، وليست ضحلة مثلها ، وعلينا أن نغفر لجروز رؤيته الجوانب السارة من الحياة وتصويرها ، وحبه لوئب الأطفال المرح ؛ وبراءة البنات الجميلات الهشة ، والقناعة المتواضعة لبيوت الطبقة الوسطى . فلولا جروز وشاروان لتوهمنا أن فرنسا كلها كانت منحطة فاسدة . وأن دويارى كانت نموذجها ، وأن فينوس ومارس كانا ربها الوحيدين . أما الحقيقة فهي أن الأشراف هم المنحطون ، وأن لويس الخامس عشر هو الفاسد . وأن الارستقراطية والملكية هما اللذان سقطا فى الثورة . أما جماهير الشعب — باستثناء رعاى الريف والمدن — فقد احتفظت بالفضائل التى تنقذ أمة من الأمم ، وقد صورها جروز . وحيأ ديدرو شاردان وجروز . لا بوشيه وفراجونار . باعتبارهما صوت فرنسا وسلامة روحها .

ويروى عن هذا الفنان فى شبابه ما يروى عادة من قصص عن شباب الفنانين : اراد أن يرسم ، فمنعه أبوه ظناً منه بأن هذه الرغبة ليست سوى ستار للكسل ، وكان الغلام يتسلل من فراشه ليلا يرسم الصور . فلما وقع بعصر أبيه على صورة منها لانت قناته فأوفده ليدرس على يد مصور فى ليون . ولم يطل رضاء جان — باتيست عما استطاع أن يتعلمه هناك ، فم شطر باريس . وعمل فترة فى الفقر الذى تمتحن به الموهبة الشابة . وكان محققاً فيما بعد فى إبراز الجانب الأفضل فى الناس ، لأنه وجد كما يجد معظمنا

الكثير من العطف مختلطا بما في الدنيا من عدم مبالاة وإنشغال عن الموهبة .
وحوالي عام ١٧٥٤ اشترى [جماع للفنون يدعى إلاف دجوللى] صورة
رسمها جروز تسمى « رب الأسرة » [(وقد استعمل ديدرو هذا العنوان
ذاته لتمثيلاته الثانية عام ١٧٥٨) وشجعه على مواصلة التصوير . ورأى
الفنان الذى كان يعلم التصوير للأسرة المالكة صورة بريشة جروز ، فرشحه
لأكاديمية . ولكن كل مرشح كان ينتظر منه أن يقدم خلال ستة أشهر رسما
لمشهد من مشاهد التاريخ . ولم تكن هذه المشاهد التاريخية مما يوافق مزاج
جروز ، فترك حقه فى الترشيح يسقط ، وقبل ما عرضه الأبىه جوجنو
من تمويل رحلته إلى روما (١٧٥٥) .

وكان قد بلغ الثلاثين ، ولا بد أنه أحس قبل ذلك بزم من بسحر الأنثى ،
أو ليس نصف الفن نتاجا جانبيا لتلك القوة القاهرة ؟ وقد خبرها فى روما
خبرة أورثته تباريح الجوى . ذلك أنه عهد إليه بتعليم الرسم لليتيا ، ابنة
أحد الأدواق ، وكانت فى ميعه الصبا ، فما الذى يستطيعه إلا أن يقع فى
غرامها ؟ وكان مليح الصورة ، له شعر مموج ووجه بشوش متورد ، وكان
زميله فى الطلب فراجونار يلعبه « الملك العاشق » ، أنظر فى اللوفر إلى
صورته التى رسمها لنفسه فى شيخوخته ، ثم تخيله وهو فى الثلاثين . ولم يكن
مناص من أن تلعب ليتيا فى حميا الشباب الذى لا يعبأ بالمال ، دور هلويز
أمام هذا الأبيلا ، باستثناء الجراحة . ولم يستغل ضعفها ، وعرضت عليه
الزواج : وكان يهفو إليها ، ولكنه أدرك أن زواج فنان فقير بوارثة دوق
سيقلب بعد قليل مأساة للفتاه . وإذ كان غير وأثق من قدرته على السيطرة
على نفسه فقد عقد النية على ألا يراها ثانية . فرضت ، وزارها وسرى
عنها ، ولكنه عاد إلى تصميمه . ويؤكدون أنه ظل ثلاثة أشهر يلزم فراشه
بحمى وهذيان متكرر^(٥٦) . وفى ١٧٥٦ قفل إلى باريس دون أن يتأثر إطلاقا
بالفن الكلاسيكى أو الإحياء الكلاسيكى الجديد .

يقول « بعد وصولى إلى باريس أتفق أن مررت — ولا أدري أى قدر
دفعنى إلى هذا — بشارع سان — جاك ، حين لاحظت الإناسة بابوتى خلف

منضدتها^(٥٧) . وكانت جابريل بابوتى تعمل فى مكتبة ، وكان ديدرو يشتري كتبها و « يحبها كثيرا » (على جلد قوله) قبل ذلك بسنوات . وكانت الآن (١٧٥٦ — ٥٧) قد تجاوزت الثلاثين (كما يقول جروز) تخشى أن تظل عانساً ؛ فوجدت جان — باتيست غير ميسور الحال ولكنه حلو . وبعد أن زارها بضع مرات قالت له « يا مسيو جروز ، اتزوجنى أن رضيت بك زوجاً ؟ » وأجاب كما يجيب أى فرنسى مهذب « يا آنسة . ألا يكون أى رجل غاية فى السعادة إذا أنفق حياته مع امرأة ساحرة مثلك ؟ » ولم يفكر فى الأمر أكثر من هذا ، ولكنها تركت الخيران يفهمون أنه خطبها . ولم يطاوعه قلبه على تكذيبها ، فتزوجها وظلا . سبع سنين ينعمان بقسط معقول من السعادة . وكانت ذات جمال مغر ، فاستخدمها راضية موديلاً فى كثير من الأوضاع التى لم تكشف عن شيء . وإن ألمت لكل شيء . وإنجبت له فى تلك السنين ثلاثة أطفال عاش منهم اثنان كانا إلهاما « لفنه » .

ويعرفه العالم بصور الأطفال التى رسمها . وعلينا ألا نوقع هنا روعة لوحة فيلانسكرىز « دون بلنازار كارلوس »^(٥٨) . أو لوحة فاندليك « جيمس الثانى صيبيا »^(٥٩) ، لا بل إننا أحياناً قد نصدم بما فى بنات جروز من غلو وتهافت فى العاطفة ، كما تشهد بذلك « صورة عذراء » المحفوظة ببرلين ، ولكن لم نرفض ما فى صورة « البراءة »^(٦٠) من نضج متموجة ، ونحدود متوردة . وعيون فيها الحزن والثقة ، أو ما فى لوحة « الفلاحة الصغيرة »^(٦١) من بساطة لم يفسدها التبرج ؟ كذلك لا نجد تكلفاً فى لوحة « الغلام وكتاب الدرس »^(٦٢) . فهى تصور أى غلام مل واجبا يبدو له مقطوع الصلة بالحياة . ومن بين ١٣٣ لوحة بقيت من رسوم جروز . اختص البنات بست وثلاثين . وقد اشترى يوهان جيورج فلى ، الحفار الإلمانى نزيل باريس ، ما استطاع شراءه من هذه الصور المثالية للطفولة ، ورآها « أتمن من أروع صور هذا العهد »^(٦٣) . ورد جروز هذه النحية بتصويره السكسونى غير الخذاب مثالا للفحولة . على أن هؤلاء الفتيات يشوبهن التكلف والصنعة إذ يكبرن فى فن جروز . مثال ذلك أن « اللبانة »^(٦٤) تبدو فى أبهى لباس كأنها تتأهب للذهاب إلى المرقص ، وصبية « الحرة المكسورة »^(٦٥) لا داعى (إلا داعى

الجمال) يدعوها للكشف عن حلمة ثديها وهى فى طريقها من البئر . ولكن فى صورة لصوقى أرنو^(٦٦) ، وتبدو القبعة ذات الريش ، والوقفة الأنيقة ، والشفاه القرمزية ، كلها طبيعية .

لقد كان جروز أشبه بشاردان صغير فيه مسحة من بوشيه ، رجلا معجبا حقيقة بالفضيلة وبحياء الطبقة الوسطى ، ولكنه يكسوها بين الحين والحين إغراء شهوانيا كان شاردان يتجنبه . وكان فى إستطاعة جروز إذا نسي أجساد نسائه أن ينشد فى صورة أنشودة الحياه العائلية البورجوازية ، كما نرى فى « عروس القرية^(٦٧) » التى ظفوت بأكبر جائزة حين عرضت فى آخر أسبوع لصالون ١٧٦١ ، وأصبحت حديث باريس . وأطراها ديدرو لما فيها من « عاطفة حلوة » وأشاد بها « مسرح الإيطاليين » إشادة لم يسبق لها نظير ، إذ قدمها فى « لوحة حية » على المسرح . وقد وجد الخبراء فيها عيوباً - من ضئيل لم يحسن المصور التصرف فيه ، إلى الزان متنافرة ، إلى قصور فى الرسم والتنفيذ ، وضحك الارستقراطيون على مافيا من غاوى العاطفة ، ولكن جمهور باريس ، الذى كان قد عب فى الزنا حتى الثمالة ، وأبكتته فى هذه السنة بعينها « جولى » روسو ، كان فى مزاج يدعو له للاحترام النصائح والتحذيرات الخلقية التى كادت تسمع من فم والد العروس إلى زوجها الموعود . وكانت كل عقيلة من عقائل الطبقة الوسطى عليمه بمشاعر تلك الأم وهى تسلم أبنها لمشاق الزواج ومخاطره ، وكل فلاح كان يشعر بأنه ليس غريباً فى ذلك الكوخ الذى تنقر فيه دجاجة وأفراخها الغلة على أرضه أو تشرب فى أطمثنان من القدر التى تحت قدم الأب . واشترى مركز دمارينيه الصورة لفوره ، ودفع الملك فيها بعد ذلك ١٦٠٦٥٠ جنيتها ليحول دون بيعها بالخارج . وهى اليوم محفوظة بأحدى حجرات اللوفر التى لا تحظى بزوار كثيرين ، وقد أُلِفَها تغير ألوانها السطحية جداً ، وغض الجمهور من قدرها فى نعمة تمرد الواقعية والكلبة على العاطفة المتفائلة .

وأحس كل فنانى باريس تقريباً بأن جروز حط من شأن الفن لأنه سخره للوعظ من خلال الروايات والقصص بدلا من كشف الحقيقة والطبائع

بنفاذ بصيرة وعدم تحيز . ودافع عنه ديدرو قائلا إنه « أول فنانينا الذي أضفى الخلق على الفن ، وهيا صورته لتروى قصة (٦٨) » . وبلغ به الأمر حد الدهشة والتعجب من المأسى الرقيقة التي رسمها جروز ، فصاح في أسى « لذيذة ! لذيذة ! » حين رأى لوحة « الفتاة الصغيرة تبكى على عصفورها الميت » وكان هو نفسه يدعو لمواضيع الطبقة الوسطى ومشاعرها في الدراما ، فأنس في جروز حليفا عظيم القيمة وأطراه حتى فوق إطاره شاردان . وغلا جروز في تصديقه ، فكرر نفسه كأنه رسول الفضيلة والعاطفة ، وأرسل إلى مجلات باريس شروحا طويلة للدورس الاخلاقية في الصور التي كان ينتجها . وأخيرا أستنزف ترحيب جمهور الفن به حتى إبان تسلط العاطفة على مزاج العصر .

وكان خلال فترة السنوات الأثنتى عشرة كلها منذ قبول ترشيحه للأكاديمية قد أهمل أن يقدم لها الصورة التاريخية التي كانت شرطا للعضوية الكاملة ، وكانت الأكاديمية ترى أن الصورة التي ترسم المشاهد المألوفة التي تصف الحياة البيتية أو اليومية تتطلب من الموهبة الناضجة أقل مما يتطلبه التأليف القادر على التخيل ، والتثليل الكفء لمشهد من المشاهد التاريخية . ومن ثم قبلت مصورى مشاهد الحياة اليومية على أنهم « مقبولون agréés » فقط ، ولكنهم ليسوا بعد صالحين للدرجات أو الكراسى الأكاديمية . وفي ١٧٦٧ أعلنت الأكاديمية أن صور جروز سيتوقف عرضها في الصالون البينال حتى يقدم لها صورة تاريخية .

وعليه ففى « ٢٩ يوليو ١٧٦٩ » قدم جروز صورة لسبتموس سفيروس يوبخ ابنه كراكالا لمحاولته اغتياله (٦٩) . وأطلع أعضاء الأكاديمية على الصورة ، وبعد ساعة أبلغه المدير أنه قبل ، ولكنه قال له : « سيدى ، لقد قبلت فى الأكاديمية مصورا للمشاهد اليومية . وقد أخذت الأكاديمية فى الاعتبار تفوق صورتك السابقة ، وأغمضت عينها عن الإنتاج الحالى غير الحدير بها ولا بك (٧٠) » . وصدى جروز ، فدافع عن لوحته ، ولكن أحد الأعضاء بين الأخطاء فى الرسم . واحتكم جروز إلى الجمهور فى خطاب

لصحيفة « الأ فان - كورييه » (٢٥ سبتمبر ١٧٦٩) ، وأخفق شرحه في إقناع الراسخين في الفن ، وحتى ديدرو سلم بعدالة النقد .

وألهم ديدرو إلى أن قصور اللوحة راجع إلى أن فشل المصور في زواجه شوش ذهنه . واتهم جابريل بابوتي بأنها تردت إلى درك المرأة المشاكسة المغرورة ، فاستنزفت مال زوجها بإسرافها ؛ وأرهقته بمضايقاتها ؛ وحطمت عزة نفسه بخياناتها المتكررة^(٧١) . وقدم جروز نفسه لرئيس الشرطة (١١ ديسمبر ١٧٨٥) شهادة خطية يتهم فيه زوجته بأستقبال عشاقها بإصرار في بيته ورغم احتجاجاته . وفي خطاب لاحق أتهمها بسرقة مبالغ كبيرة منه ، وبمحاولة « تحطيم رأسى بمبولة^(٧٢) » . وحصل على انفصال شرعى ، وأخذ ابنتيهما في حضنته ، وترك لها نصف ثروته ومعاشا سنويا قدره ١,٣٥٠ جنيهها .

وتدهور خلقه إثر هذه اللطمات ، فبات يضيق بأى نقد ، وفقد كل تواضع في الأشادة بلوحاته . على أن الجمهور وافقه على إعزازة بنفسه ، فأقبل على مرسه وأثراه بشراء صوره ، والنسخ المطبوعة منها . وإستثمر هو مكاسبه في سندات حكومية ، ولكن الثورة أطاحت بقيمة هذه السندات ، وألقى جروز نفسه مملقا ، في حين إنهارت سوق صوره الممثلة للسعادة والسلام البيتين نتيجة « لا ستغراق فرنسا في العنف الطبقي ، والهياج السياسى ، ورد فعل الكلاسيكية الجديدة . وأنقذته الحكومة الجديدة إنقاذا معتدلا (١٧٩٢) بمعاش قدره ١,٥٣٧ جنيهها ، ولكن سرعان مانفد هذا المعاش فالتمس سلفة ، وجاءت امرأة من الرعاع تدعى إنتيجون لتعيش معه وتعنى بصحته المتدهورة . فلما قضى نحبه (١٨٠٥) كان العالم كله تقريبا قد نسيه ، ولم يرافق جثمانه إلى القبر سوى فنانين اثنين .

(٥) فراجونار

تغلب جان - أونوريه فراجونار على محن النجاح خيرا من جروز ، لأنه كان يفوقه شهوانية وصنعة . وفنه الأنيق هو التمجيد الأخير للمرأة الفرنسية في القرن الثامن عشر .

ولد في جراس بأقليم بروفانس (١٧٣٢) ، فأضنى على فنه أريج وطنه وعبير إزهاره ، فضلا عن عشق التروبادور الرومانسى ، وإضاف إلى هذا كله مرح الباريسيين وتشككهم الفلسفى . وجلب إلى باريس فى الخامسة عشرة فطالب إلى بوشيه أن يقبله تلميذا ، وقال له بوشيه بكل ما وسعه من تطف إنه لا يقبل غير الطلاب المتقدمين . فذهب فراجونار إلى شاردان ليخدمه . وكان فى ساعات فراغه ينسخ الروائع الفنية أينما وجدها . وأطلع بوشيه على بعض هذه النسخ فأعجب بها إعجابا شديدا حمله على قبوله الآن تلميذا ، وجند خياله الفنى فى عمل تصميمات لقطع النسيج المرسومة ، وتقدم الغلام بسرعة حتى حثه بوشيه على دخول المسابقة لنيل جائزة روما . وقدم فراجونار لوحة تاريخيه سماها « يربعام يضجى للاصنام »^(٧٣) . وكانت إنتاجا ممتازا لفتى فى العشرين — فيها الأعمدة الرومانية الفخمة ، والأرواب المنسابة ، ورؤس الشيوخ الملتحية ، أو المعممة ، أو الصلعاء ، وكان فراجونار قد تعلم فى زمن قليل بحيث نرى فى الوجه العجوز من الملامح أكثر من وجه لم تطبعه بعد الرغبة فى الأثارة والاستجابة . ومنحته الأكاديمية الجائزة ، فدرس ثلاث سنين فى مرسم كارل فانلو ، ثم إنطلق فى نشوة إلى روما (١٧٦٥) .

وثبتت همته كثرة الروائع التى وجدها هناك أول الأمر :

« لقد روعتني همة ميكلائجلو — فجاشت فى صدرى عاطفة عجزت عن التعبير عنها ، وحين رايت روائع رفائيل تأثرت إلى حد البكاء ووقع القلم من يدي . وفى النهاية رانت على حالة من التراخي لم أقو على قهرها . ثم ركزت على درس المصورين الذين أتاحوا لى الأمل فى أننى قد أنافسهم يوما ما . وهكذا جذب إنتباهى باروتشيو ، وببيترو داكورتونا ، وسليينا ، وتيبولو^(٧٤) . »

وبدلا من أن ينسخ صور قدامى الفنانين راح يرسم التصميمات أو التخطيطات للقصور ، والقناطر ، والكناثس ، والمناظر الطبيعية ، والكروم ، وأى شيء آخر ، ولا غرور فقد ملك الآن فى استعمال القلم تلك البراعة التى

ستحوله واحدا من أقدر الرسامين وأكملهم في عصر غنى في ذلك الفن الأساسي (*). وقل من الرسوم ما التقط من حياة الطبيعة أكثر من الأشجار الخضراء في فيلا دستي كما رآها فراجونار في تريفولي (٧٥).

فلما عاد إلى باريس عكف على إرضاء الأكاديمية بلوحة تاريخية ، باعتبار هذه اللوحة شرطا لاغنى عنه في قبول الرسام عضوا بها . ووجد المواضيع التاريخية كما وجدها جروز ، لاتناسبه ، فقد اجتذبت باريس جميلة بنسائها الساحرات بأقوى مما اجتذبه الماضي . وكان تأثير بوشيه لايزال حارا في مزاجه . وبعد تلك كثير قدم لوحة « كبير الكهنة كوريرسوس يضحى بنفسه لينقذ كاليريوبيه » ؛ ولأحاجة بنسائها للوقوف والاستفسار عن يكون هذا الكاهن وتلك العذراء ، والمهم أن الأكاديمية وجدتهما نابضتين بالحياة مرسومين رسما جيدا ، فنحت فراجونا رعضوية مشاركة . وقال ديدرو في حماسة عارمة « لأعتقد أن أى فنان آخر في أوربا كان مستطيعا تصور هذه اللوحة (٧٦) » . واشتراها لويس الخامس عشر لتكون تصميا لقطعة نسيج مرسومة . ولكن فراجونا نفّض يده من المواضيع التاريخية ، بل إنه بعد ١٧٦٧ رفض أن يعرض في الصالون ، وقصر إنتاجه كله تقريبا على التكيليفات الخاصة ، حيث يستطيع إطلاق العنان لذوقه من القيود الأكاديمية . ولقد تمرد على تلك « الصلصة البنية » صلصة النهضة الأوربية ، قبل أن يتمرد عليها الرومانسيون الفرنسيون بزمان طويل ، وانطلق في مرجح إلى بحار أرحب وأقل تخطيطا .

ولكنها لم تكن خلوا تماما من التخطيط . فقد فتح فاتو الطريق . من قبل بنسائه اللاتي كساهن أثوابا مشرقة وهن منطلقات بضمير . طمن إلى جزيرة فينوس ، وكان بوشيه قد نهج هذا النهج بحواس مرحة لجوب ، وزاوج جروز بين الشهوانية والبراءة . أما فراجونار فقد جمع بين هذه كلها : ففي لوحاته الثياب الهفافة ترف في النسيم ، والغواني الرقيقات يعرضن اللذات الطليقة من كل قيد ، والنبيلات الأنيفات يسجرن الرجال

* كان هذا عصر أئمة النقش والحفر أمثال شارل-نيكولا كوشان ، وجايريل دسالت - أوبان ، وجان - جاك بواسييه ، وشال ايزن - ألمع رسامي الكتب في القرن الثامن عشر .

بحفيف ثوب أو ورقة قميص ، أو بحركة رشيقة متناغمة أو بسمرة تلين الأفئدة ، والأطفال السمان المتوردون الشعث ، الذين لم يكتشفوا الموت بعد . وقد صور في رسومه ومنماته كل ناحية تقريبا من نواحي الطفولة - وضع يعانقون أمهاتهم ، وفتيات يدللن عرائسهن ، وصبية يركبون حمارا أو يلعبون مع كلب

وقد استجابت ميول فراجونار العشقية الغالية لطلبات رجال الحاشية المكتهلين ، والتحليلات المتعبات ، من الصور التي تشيد بالجسد وتلهبه . فجاء بين أرجاء الأساطير الوثنية بحثاً عن ربوات امتنعت أجسادهن الوردية على فعل الزمن . وكانت فينوس ، لا العذراء ، هي التي رفعت الآن في صعود ظافر إلى السماوات . وسطا على نصف شعائر الدين لمهرجانات الغرام : فكانت لوحته « القبلة »^(٧٧) صلاة ، و « نذر الحب » عهداً مقدساً ، و « قربان الورد » المقدمة الأخيرة . ومن بين صور أربع رسمها فراجونار لقصر مدام دوباري الريني في لوفسيين كان لإحداها عنوان يصلح لتغطية نصف إنتاج الفنان : « الحب الذي يشعل الكون » . ثم نبش في ملحمة تحرير أورشليم ، بحثاً عن المشهد الذي تعرض فيه الحوريات مفاتهن أمام رينالدو العفيف . وأصبح هذا الفنان « بوشيه » الفراش ، إذ أبدى النساء نصف عاريات أو عاريات تماماً ، كما يرى في لوحات « الجمال النائم » أو القميص المخلوع أو الباخوسية النائمة^(٧٨) . فلما أدرك أن العرى قد يقشع الأوهام تحول من التصريح إلى التلميح ، ورسم أشهر لوحاته « مخاطر الأرجوحة »^(٧٩) ، ففيها يرى العاشق يتفرس بابتهاج في أسرار ثياب عشيقته الداخلية التي تتكشف وهي تتأرجح لأعلى فأعلى ، وتقلد بخفها في الهواء بتمحور لعوب . وأخيراً استطاع فراجونار أن يتقمص جروز ، بل وشاردان : فصور النساء المحتشمات ، كما في لوحاته « الدراسة » « والمطالعة »^(٨٠) . و « قبلات الأم » ، وفي صورة « مدموازيل كولومب » اكتشف أن النساء نفوساً .

وفي ١٧٦٩ ، حين بلغ السابعة والثلاثين ، أذعن لزوج ، فحين قدمت الأنسة جيرار من جراس لدراسة التصوير في باريس ، كان حسبها أن تذكر

سقط رأسها حتى تظفر بالقبول في مرسوم فراجونار . ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت امرأة مكتملة النضج ، وقرر « فراجو » (كما كان يسمى نفسه) كما قررت مدام بوفاري ، أنه لا يمكن أن يكون الاكتفاء بامرأة واحدة . مملاً أكثر من الزنا . ووجد متعة جديدة في العمل معها في رسم صور مثل « خطوات الطفل الأولى » وفي التوقيع معها على الصور . فلما ولدت طفلها الأول استأذنته في استدعاء أختها البالغة أربعة عشر عاماً من جراس لتعيّنها على الطفل والبيت ؛ فوافق وظلت هذه الأسرة سنين تعيش في سلام مزعزع .

ونافس الآن جروز في تصوير الحياة البيتية ، ونافس بوشيه في توصيل هدوء المشاهد الريفية إلى أنظار المشاهدين . ورسم بعض الصور الدينية ، وصور أصدقاءه . وكان في صداقته أثبت منه في حبه ، فلم يفر قط تعلقه بجروز وروبير ودافيد رغم ما أصابوا من نجاح . وحين نشبت الثورة أهدى صورة وطنية سماها « الأم الطيبة » للأمة . وكادت مدخراته تفقد قيمتها نتيجة للتضخم وتحلف الحكومة في الوفاء بديونها ، ولكن دافيد الفنان الأثير لدى العهد الجديد ، حصل له على وظيفة شرفية صغيرة . وفي نحو هذه الفترة رسم صورته الذاتية الرائعة المعلقة الآن في اللوفر : الرأس قوى ضخيم والشعر أشيب قصير القص ، والعينان مازالتا هادئتين ثقة واطمئناناً . وقد روعه عصر الارهاب وقززه ، ففر إلى وطنه الأول جراس ، حيث وجد المأوى في بيت صديقه موبير وقد زين الجدران بلوحات تعرف في جملتها باسم « رواية الحب والشباب » وقد رسمها خصيصاً لمدام دوباري ، ولكنها كانت قد رفضتها لأنها لم تعسد في ثرائها السابق ، وهي اليوم من كنوز فريك جالري بنيويورك .

و ذات يوم من أيام الصيف كان راجعاً من جولة في باريس وقد حمى جسمه وتصيب عرقاً ، فوقف عند مقهى وتناول قطعة من الخيلاتي وأصيب للتو تقريباً باحتقان في المخ . ونعم بميتة عاجلة (٢٢ أغسطس ١٨٠٦) . وقد أقامت جراس تمثالاً جميلاً لتخليد ذكراه ، وتحت قدميه طفل عار ومن خلفه شابة تدوم ثوبها في رقصة مرحة .

أن الفنان لا بد أن يدفع ثمنا لرمزه لعصر ما ، فشهرته تضمحل بزوال رغبات العصر المشبوبة ، ولا سبيل إلى عودة هذه الشهرة إلا إذا رفع قدره عاطف البعد ، أو رد تحول في التيار موضة قديمة إلى الذوق الحاضر . وقد زكا فراجونار لأن فنه العارى أو الكاسى أبهج زمانه ، بتلطيفه وتزيينه للانحلال ، واكن الناموس الصارم الذى خضعت له ثورة تقاتل في سبيل الحياة سائر أقطار أوربا ، كان في حاجة إلى أرباب غير فينوس تلهمه ، فوجدوها في أبطال روما الجمهورية ، الشديدي المراس . لقد انتهى عصر المرأة وعود حكم المقاتل ؛ وأقبل جيل جديد من الفنانين على النماذج اليونانية — الرومانية ، التى أعاد تأليها فنكلمان ، واكتسح الطراز الكلاسيكى الجديد الباروك والروكوك فى موجة عارمة من الأشكال القديمة .

٦ — الصالونات الكبرى

(١) مدام جوفران

لقد دالت دولة المرأة ، ولكن بعد أن بلغت الصالونات ذروتها . وبلغت تلك المؤسسة الفذة أوجها بـ مدام جوفران ، وانحسرت فى حمى من الرومانسى بمدموازيل ديسييناس . وستنتعش بعد الثورة بالسيدتين دستال وريكاميه ، ولكنها لن تدرك أبدا فتنة وخصوبة تلك الفترة التى كان يلتقى فيها مشاهير الساسة فى أيام السبت بـ صالونات مدام دوديفان ، والفنانون فى أيام الإثنين والفلاسفة والشعراء أيام الأربعاء بـ صالون مدام جوفران ، والفلاسفة والعلماء أيام الثلاثاء بـ صالون مدام هلفتيوس ، وأيام الأحد والخميس بـ صالون البارون دولباخ ، وفحول الأدب وأقطاب السياسة أيام الثلاثاء بـ صالون مدام نكير ، وقد يلتقى أى منهم فى أى ليلة بـ صالون جولى دليسيناس . وإلى هذه الصالونات كان هناك الكثير من الصالونات الصغرى : كـ صالونات السيدات دلكسمبورج ودلافالير ، ودفور كالكييه ودتالمون ، ودبرولى ، ودبوسى ، ودكروسول ودشوازيل ، ودكاميس ودميربوا ودهوفر ، ودانفيل ، وديجيون ، ودودتو ودمارشيه ، ودوبان ، وديبينيه .

ولم يكن الجمال هو الذى زين ربات الصالونات هؤلاء ، فقد كان جلهن

نساء نصفها أو أكبر ، إنما هو ذلك المركب من الذكاء ، واللباقة ، والكياسة والنفوذ والمال غير المتطفل ، الذى مكن للمضيفة أن تجمع نساء ذوات فتنة وسحر ، ورجالا ذوى عقول راجحة يستطيعون أن يجعلوا اجتماعاً أو مجلس سمر يتألق ظرفاً أو حكمة دون أن يؤججوه انفعالا أو تعصباً . ولم يكن الصالون منها مكانا للمغازلات ولا للمواضيع العشقية أو التوريات .^(٨١) فقد يكون لكل رجل فيه خلية ولكل امرأة عشيق ، ولكن هذا كان يستر بأدب فى التبادل المتحضر للمعاملات والأفكار . وكانت الصداقات الأفلاطونية تستطيع أن تجد القبول هناك . كما كان الحال مع دودفان وهرراس ولبول ، أو مع ليسيناس ودالامير . وباقتراب الثورة نزلت الصالونات إلى فقدان تسامحها الهادى وأصبح مراکز للتمرد .

وزادت شهرة صالون مدام جوفران لأنها كانت أبرع مروضى السباع بين ربات الصالونات ، ولأنها أتاحت للرواد مزيدا من حرية النقاش ، ولأنها عرفت كيف تمنع الحرية من تجاوز حدود السلوك المهذب أو الذوق السليم — دون أن تبدو مستبدة . وكانت إحدى النساء القليلات اللاتى برزن من الطبقة الوسطى ليحتفظن بصالون مرموق . وكان أبوها ، وصيف الدوفيتة مارى — آن ، قد تزوج بابنة مصرفى ، وأول من رزقا من أطفال فى ١٦٩٩ هى مارى — تريز ، التى أصبحت فيما بعد مدام جوفران . ووضعت أمها ، وكانت امرأة مثقفة موهوبة فى التصوير ، الخطط الطموحة لتنشئة ابنتها . ولكنها ماتت عام ١٧٠٠ وهى تلد صبيا . وأرسل الطفلان ليعيشا مع جدتهما فى شارع سانت — أونوريه — وبعد نصف قرن عللت مدام جوفران افتقارها إلى التبهر فى الثقافة فى خطاب أجابت به ما طلبته كاترين الثانية فى سيرة ذاتية موجزة لها .

« لم تحظ جدتى . . . إلا بنصيب ضئيل من التعليم . ولكن كان لها عقل أوتى من قوة الملاحظة ، والذكاء ، والسرعة . . . ما جعله دائما بديلا عن المعرفة . وكانت تتحدث حديثاً لطيفاً جسداً عن أمور لا تعرف عنها شيئا حتى لم تترك زيادة لمستزيد . . . وبلغ رضاؤها عن

حظها مبلغا جعلها ترى التعليم نافلة لا تحتاج اليها المرأة . وكانت تقول « لقد وفقت توفيقاً لم يجعلني أشعر قط بحاجة اليه . فاذا كانت حفيدتي حمقاء فستجعلها المعرفة معتدة بذاتها لا يطيقها أحد ، وإذا كان لها ذكاء وفطنة فسوف تسلك كما سلكت ، وسوف تعوض النقص بإياقتها ونفاذ بصيرتها ، ومن ثم فإنها في طفولتي لم تعلمني غير القراءة ، ولكنها جعلتني أقرأ كثيراً ، وعلمتني أن أفكر ، وأن أجادل ، وعلمتني أن أعرف الرجال وجعلتني أعرب عن رأي فيهم ، وأخبرتني كيف تحكمهم عاينهم . . . وما كانت تطيق ضروب التظرف التي يعلمها مدرسو الرقص ، وكل ما تمتنني لي هو أن تكون لي الرشاقة التي تهيئها الطبيعة للمرأة الحسنة الحلقة (٨٢) .

وأحست الجدة أن الدين أهم من التعليم ، ومن ثم كان الطفلان اليتيمان يؤخذان لحضور القداس كل يوم .

كذلك أهتمت الجدة بزواج ماري . ذلك أن رجل أعمال غنيا يدعى فرنسوا جوفران ، في الثامنة والأربعون من عمره ، تقدم للزواج من الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعاً ، ورأت الجدة في ذلك العرض صفقة طيبة ، وكان في تربية ماري وتهذيبها المفرط ما منعها من الاعتراض . على أنها أصرت على أن تصحب معها أخاها إلى بيت السيد جوفران المريح ، الواقع في شارع سانت — أوثوريه أيضاً ، والذي قدر لها أن تقوم عليه إلى نهاية عمرها . وفي ١٧١٥ أنجبت ابنه ، وفي سنة ١٧١٧ أنبأ — مات في العاشرة .

وفي ذلك الشارع العصري ذاته إفتتحت مدام دتانسان صالونا مشهورا . ودعت إليه مدام جوفران فأعترض زوجها . ذلك أن ماضي مدام دتانسان كان قد أحدث بعض الضجة ، وأن ضيوفها الأثريين كانوا من أحرار الفكر أمثال فونتينييل ، ومونتسكيو ، وماريفو ، وبريفوست ، وهلفيتيوس ، ومارمونتيل . على أن مدام جوفران ذهبت برغم ذلك ، فلقد بهرتهم هذه العقول الطليقة من كل قيد : فما كان أثقل أولئك التجار الذين يأتون لزيارة

زوجها الشيخ بالقياس إلى هؤلاء ! وكان الآن قد بلغ الخامسة والستين ، وهي لم تنزل « امرأة الثلاثين » كما يقول بلزاك . وبدأت هي أيضاً تستضيف الزائرين . فاعترض ، ولكنها تغلبت عليه ، وأخيراً ارتضى أن يترأس على حفلات عشائها ؛ صامتا عادة ومؤدياً دائماً . فلما مات (١٧٤٩) في الرابعة والثمانين ، لم يكده ضيوفها يلحظون غيابه . واستفسر أحد رواد الصالون حين عادو من رحلة عما أصاب السيد العجوز الذي كان يجلس في استحياء شديد على قمة المائدة . وأجابت مدام جوفران برفق « أنه كان زوجي ، وقد توفي (٨٣) » .

كذلك طوت مدام دتنسان رحلة الحياة عام ١٧٤٩ ، مما فرغ له ضيوفها المعتادون . ويجب أن نذكر ثانية تلك الملاحظة التي أبدتها فونتينيل الذي بلغ يومها الثمانية والتسعين : « امرأة طيبة جداً (مع أنها كانت تركيبة من الآثام الحقيقية .) ياله من خطب مقلق ؟ فأين أتناول غدائي الآن أيام الثلاثاء ؟ » ولكن أساريه إنفرجت وقال : « حسنا ، في أيام الثلاثاء يجب أن أتناول الغداء في بيت مدام جوفران (٨٤) » . وقد أبهجها أن يحضر ، لأنه كان « فليسوفا » قبل مونتسكيو وفولتير ، يحتفظ بذكريات تمتد إلى مازاران ، وقد بقي له من الأجل سبع سنوات ؛ وكان في وسعه أن يحتمل المعاكسة دون أن يتأذى منها لأن سمعه ثقل . وحذا حذوه أكثر مشاهير القوم الذين تألقوا على مائدة دتنسان ؛ وسرعان ما جمع غداء أربعاء جوفران ، في وقت أو آخر ، مونتسكيو ، وديدرو ، ودولباخ ، وجريم ، وموريلليه ، ورينال ، وسان - لامبير ، والأبيرة فرديناندو جالياني ؛ النابولي القصير الأريب ؛ سكرتير السفير النابولي في باريس .

وعقب موت زوجها ، ورغم معارضة أبنائها الساخطة . سمحت مدام جوفران لديدرو ، ودالامبير ، وما رمونتيل ، بأن يقرروا خط النقاش ونبرته في حفلات غداها أيام الأربعاء . لقد كانت وطنية ومسيحية ، ولكنها أعجبت بشجاعة الفلاسفة وحيويتهم . فلما نظمت « الموسوعة » تبرعت بأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ جنيه في نفقاتها وأصبح بيتها يعرف بـ « صالون

الموسوعة » ، وحين هجا باليسر المتمرددين في هزلية « الفلاسفة » (١٧٦٠) سخر منها في شخصية سيد الز ، الجنية عرابة « الشلة » . وبعدها طلبت إلى سباعها أن يزأروا بأدب أكثر من ذى قبل ، وكبحت البلاغة الجامعة بعبارة محاملة خففت من غلوائهم ... « آه ، هاهنا شيء طيب^(٨٥) ! » وأنخرا سحبت دعوتها الدائمة ليدرو ، ولكنها أرسلت إليه طقما من الأثاث الجديد وروبا فخما فخامة غير مريحة .

وأكتشفت أن الفنانين والفلاسفة ، ورجال الأعمال ، لا ينسجمون إذا اجتمعوا معا ، فالفلاسفة يحبون النقاش والثروة ، والساسة يتوقعون التحفظ والتأدب ، أما الفنانون فقبيلة صخباء لا يستطيع فهمهم غير الفنانين . وعليه فإن المدام ، التي كانت جماعة للفن والتقطة شيئا من حرارة الجاليات من الكونت دكايلوس ، دعت أقطاب الفن وذواقيه الباريسيين إلى حفلات عشاء خاصة في أمسيات الاثنين . ولبي الدعوة بوشيه ، ولاتور ، وفرنيه ، وشاردان ، وفانلو . وكوشان ، ودرويه ، وروبير ، وأودريه ، وناتيه ، وسوفلو ، وكايلوس . وبوشاردون ، وجروز . وكان مارمونتيل الفيلسوف الوحيد الذى سمح له بحضور هذه الحفلات لأنه كان يسكن في بيت مدام جوفران ، ولم تكتف المضيفة اللطيفة بالاحتفاء بضيوفها ، بل اشترت أعمالهم وجلست إليهم ليصوروها ، وأجزلت لهم الأجر ، وصورها شاردان خيرا من سائر الفنانين . سيدة بدينة لطيفة في قبعة من الدانتيل^(٨٦) .

وبعد موت فانلو اشترت صورتين من صوره بأربعة آلاف جنيه . ثم باعتهما لأمر روسى بخمسين ألف جنيه ، وأرسلت الربح لارملة المصور^(٨٧) .

واستكمالا للضيافة كانت مدام جوفران تقيم « حفلات عشاء صغيرة » لصديقاتها . ولكنها لم تدع نساء لحفلات الاثنين ، وكانت مدموازيل دليسيدياس (ربما بوصفها نفس دالامبير الثانية) من النساء القليلات اللاتي حضرن أمسيات الأربعاء . ذلك أن المدام كانت على شيء من حب التملك ،

ثم إنها وجدت أن حضور الأناث يصرف سباعها عن الفلسفة والفن . وبذا
أن سياسة الفصل بين الجنسين التي إنتهجتها قد بررها ما كسبته ندواتها
من صيت ذائع بالمناقشات الطريفة الهامة . واحتال الأجانب في باريس
للظفر بدعوات إلى صالونها ، ذلك أن مباحاتهم ، بعد عودتهم إلى أرض
الوطن ، بأنهم إختلفوا إلى صالون مدام جوفران ، كانت تشريفا لا يفوقه
إلا شرف المثل بين يدى الملك . وكان هيوم ، وولبول ، وفرانكلن ،
من بين ضيوفها الشاكرين . وحرص السفراء لدى بلاط فرساي - حتى
الكونت فون كاونز الرفيع المقام - على تقديم أنفسهم في ذلك المنزل
المشهور في شارع سانت - أوثوريه . وفي ١٧٥٨ أصطحب الأمير كانتيمير ،
السفير الروسى ، أميرة أنهالت تسربست التي حدثت القوم بفضائل أبنيتها ،
ولم تنقضى أربعة أعوام حتى أصبحت هذه الأبنه كاترين الثانية ، وظلت
إمبراطورة الأقاليم الروسية كلها سنين طوالا بعد هذا ، تبادل ربة الصالون
البورجوازية الرسائل الساحرة . وعاد سويدي جميل ذكى ممن إختلفوا
إلى بعض ولا ثم المدام إلى وطنه ليصبح جوستاف الثالث .

وثمة شاب أجمل هو ستانيسلاس يونيا توفسكى كان كثير التردد بل
كاد يكون من عباد مدام جوفران (التي كانت أحيانا تؤدي عنه ديونه^(٨٨)) ،
وما لبث أن إعتاد أن يناديها « ماما » ، فلما أصبح ملسكا على بولندية
(١٧٦٤) دعاها إلى زيارة وارسو ضيفا عليه . فلبت الدعوة مع أنها
بلغت الآن الرابعة والستين . وأقامت في طريقها بفينا فترة ، وكتبت
تقول « أن القوم يعرفوننى هنا خيرا مما يعرفنى جيرانى على ياردتين من
بيتى^(٨٩) » . وظلت حيناً في القصر الملكى بوارسو (١٧٦٦) تقوم من
الملك مقام الأم والمشيرة . وتبادل الناس الرسائل التي بعثت بها إلى باريس
كما تبادلوا الرسائل التي بعثت بها فولتير من فرنیه ، وقد كتب جريم يقول :
« إن الذين لم يقرؤا رسائل مدام جوفران لم يكونوا أهلا لمخالطة المجتمع
الراقى^(٩٠) » . فلما قفلت إلى باريس واستأنفت ولائها ، إبتهج عشرات من
مشاهير القوم ، ونظم بيرون ودليليل القصائد احتفاء بعودتها .

وكانت الرحلة شاقة - فقد أستقلت مركبة اخترقت نصف أوربا طولا

ثم عادت بها إلى وطنها ، ولم تعد مدام جوفران قط بعدها إلى سابق تيقظها ومرحها . وراحت الآن تجدد حرصها على العبادة الكاثوليكية ، وهي التي أعربت من قبل عن إفكارها الحياة بعد الموت (٩١) ، وأحالت الدين محبة وبراً بالناس . وقد وصف ما رمونتيل تقواها الغريبة فقال : —

« لكي ترضى السماء دون أن تغضب مجتمعها ، ألقت العكوف على لون من العبادة المستورة . فتذهب إلى القديس سرّاً كما يذهب غيرها إلى مؤامرة ، ولها شقة في دير ومقعد خاص في كنيسة الكبرشيين تتكلم أمرها كما تتكلم النساء العاشقات في تلك الأيام عش غرامهن (٩٢) .

وفي سنة ١٧٧٦ أعلنت الكنيسة الكاثوليكية يوبيلاً يتلقى فيه كل من يزورون كنائس معينة في أوقات مقررة الحل والغفران . وفي ١١ مارس حضرت مدام جوفران صلاة طويلة في كتدرائية نوتردام . وعقب وصولها إلى بيتها أصابها نوبة فالج . وغضب جماعة الفلاسفة لأن مرضها جاء عقب قيامها بالعبادة ، وعلق الأب مورياليه تعليقاً لاذعاً « لقد أكدت بالقدوة صدق القول المأثور الذي كثيراً ما رددته « أن المرء لا يموت إلا بفعل من أفعال العبادة (٩٣) . وتكفلت أبنيتها المركيزة دلافرتيه — يامبو بأمرها المريضة ، وحذرت الفلاسفة من زيارتها . ولم تقع عيننا المدام ثانية على دالامبير ولا مورياليه ، ولكنها رتبت زيادة في المعاشات التي كانت تجريها عليها بعد موتها . وإمتد بها الأجل عاماً آخر ، مشلولة عاجزة ، ولكنها ظلت توزع صدقاتها إلى النهاية .

ب — مدام دودفان

كان هناك صالون واحد في أوربا يستطيع أن ينافس صالون مدام جوفران شهرة ومريدين وقد سبق أن درسنا سيرة ونخلق ماري ديفيشي — شامرون : وكيف أنها وهي صبية أفزعت الراهبات والقساوسة بحرية فكرها ، وكيف تزوجت المركز دودفان ، وهجرته ، والتمست السلوى لوحدها في صالون (١٧٣٩ وما بعدها) ، بشارع بون أولاً ، ثم (١٧٤٧) بدير سان جوزيف

بشارع سان دومنيك. وروع هذا الموقع الجديد الذي اختارته لصالونها جماعة الفلاسفة الذين كانوا يأتون ليستمتعوا بنبيذها وظرفها، إلا واحداً منهم هو دالامبير، الذي ظل يتردد عليه لأنه كان أقل أفراد هذه القبيلة مشاغبة وعدوانا. أما باقي الرواد فكانوا رجالا ونساء من الطبقة الارستقراطية، يميلون إلى التعالي على مدام جوفران لأنها بورجوازية. وحين كف بصر المركيزة وهي في السابعة والخمسين (١٧٥٤) واصل أصدقاءها الاختلاف إلى حفلات عشائها ولكنها خلال باقي الأسبوع أحست وقع الوحدة في جزع متزايد، إلى أن أقنعت ابنة أخيها بالإقامة معها، والقيام بدور المضييفة المساعدة في أمسياتها.

وكانت جولي دليسيناس الابنة غير الشرعية للكونتييسة دالبون وجسبار دفيشي، أختي مدام دودفان، واعترفت الكونتييسة بها، وربتها مع أطفالها الآخرين، وأتاحت لها تعلما ممتازا، وحاولت إقرار شرعيتها، ولكن إحدى بناتها اعترضت فأخفقت المحاولة. وفي ١٧٣٩ تزوجت هذه الأخت غير الشقيقة من جسبار دفيشي وذهبت لتعيش معه في قصر شامبرون الريني ببرجنديا. وفي ١٧٤٨ ماتت الكونتييسة بعد أن أوصت بمعاش سنوي قدره ثلثمائة جنيه لجولي البالغة آنذاك السادسة عشرة. وأخذت مدام دفيشي جولي إلى شامبرون، ولكنها عاملتها على أنها فتاة يتيمة غير شرعية تستخدمها مربية للأطفال. فلما زارت مدام دودفان شامبرون راعها ما آنتسته في الأنسة دليسيناس من عقل نير وساوك مهذب، وكسبت ثقة الفتاة، وعلمت أنها تشقى في وضعها الراهن شقاء حملها على أن تدخل ديرا. واقترحت المركيزة أن تأتي جولي وتعيش معها في باريس، واعترضت الأسرة مخافة أن ترتب دودفان تقرير شرعية جولي فيخول لها هذا حقاً في نصيب من تركة ألبون. ولكن المركيزة وعدت بأنها لن تسيء إلى أقربائها بعمل كهذا. ودخلت جولي أثناء ذلك ديرا (أكتوبر ١٧٥٢) لا كراهبة مبتدئة بل كتلميذة في القسم الداخلي. وجددت المركيزة اقتراحها. ووافقت جولي بعد عام من التردد. وفي ١٣ فبراير ١٧٥٤ أرسلت لها المركيزة رسالة غريبة يجب أن نتذكرها ونحن نحكم على ما تلاها :

« سأقدمك على أنك شابة من إقليمى تريدن دخول دير، وسأقول لاني

قدمت لك مسكننا حتى تجدى مكانا مناسباً لك . وستعاملين بأدب ، بل بمجاملة ،
وفي وسعك أن تعتمدى على أن أحدا لن ينال من كرامتك .

على أن هناك نقطة أخرى على أن أشرحها لك . فأنا لا أطيق أى
خداع ، ولو كان مكرًا طفيفاً جداً ، إن كنت تخلطينه بسلوكك . وأنا بطبعي
شكاكه ، أشبه في كل من أكشف فيهم المكر إلى أن أفقد كل ثقة فيهم . إن لي
صديقين حميمين - فورمون ودالامبير ، أحبهما حبا جما ، لا للطفهما
وصداقتهما بقدر ما أحبهما لصدقهما المطلق . عليك إذن يا مليكتي أن تعزى
العيش معى بغاية الصدق والإخلاص ... قد تظنين أنى أعظك ، ولكنى
أؤكد لك أنى لا أفعل هذا أبداً إلا فيما ينصل بالإخلاص . ففى هذا لا تأخذنى
رحمة بأحد . (٩٤)

وفي أبريل ١٧٥٤ أتت جولى لتسكن مع مدام دودفان ، أولاً فوق سقيفة
للحربات ، ثم فى حجرة فوق شقة المركزة فى دير سان جوزيف . وقرر لها
دوق أورليان معاشاً قدره ٦٩٢ جنيه^(٩٥) ، ربما بناء على اقتراح المدام .
وكانت تعين المضيقة المكفوفة على استقبال ضيوفها وإجلالهم فى ندواتها ،
وأضفت الإشراف على أعمال الندوة باطلف سلوكها وسرعة بديتها ونضارة
شبابها وتواضعه . ولم تكن ذات جمال بارع ، ولكن عينيها السوداوين
المتألفتين وشعرها البنى الغزير ألفا مزيجاً فتاناً . فكاد يقع فى غرامها نصف
الرجال الذين اختلفوا إلى الندوة ، حتى فارس المدام الأمين العجوز شارل -
جان فرنسوا اينو ، رئيس محكمة العرائض ، صاحب الأعوام السبعين ،
المتوجع أبداً ، التلأبداً بالكثير من النبيذ . وتقبلت جولى مجاملاتهم بما يجب من عدم
الاكتراث ، ولكن رغم ذلك فإن المركزة الشديدة الحساسية فى عماها لا بد
قد شعرت بأن بعض العبادة قد انتقلت من عرشها . وربما دخل فى الأمر عنصر
جديد : ذلك أن المرأة المسنة كانت قد بدأت تحب الشابة حبا لا يرضى بشريك
اه . وكانت كلتاها تلهب بالعاطفة المشوبة ، رغم أن المركزة أوتيت عقلا من
أكثر عقول العصر رجاجة ونفاذا .

ولم يكن مناص لجولى من أن تحب . أولاً لإرلنديا شاباً لا نعرف عنه

غير اسمه تاف . فبعد أن قبل في الصالون كان يختلف إليه كل يوم تقريبا . وسرعان ما تبين للمركيزة أنه لا يأتي لمشاهدتها بل لمشاهدة المدعوازيل ، وروعها أن ترى أن جولى قبلت تودده بالرضى . فحذرتها من تعريض نفسها للخطر . وأنكرت الفتاة المتكبرة نصيحة الأم . وإذا خافت المركيزة أن تفقدها وحرصت على حمايتها من غرام عات لا يرجى دوامه ، أمرت جولى بأن تلزم حجرتها إذا جاء تاف . فأطاعت ، ولكن المشاجرة أثارت فيها من الانفعال ما حملها على تعاطى الأفيون لتهدئ أعصابها . وقد شاع استعمال الأفيون في القرن الثامن عشر مهذنا ، ولكن الأنسة ليسبيناس ضاعفت جرعاتها مع كل غرام جديد .

وألفت أن تسلو تاف ، ولكن غرامها الجديد دخل التاريخ ، لأنه أصاب الرجل الذى اصطفته مدام دودفان لنفسها في حب أموى ولكنه شديد التملك . وكان هذا الرجل ، جان لورون دالامبير ، في عام ١٧٥٤ قد بلغ أوج شهرته رياضيا ، وفيزيائيا ، وفلكيا ، ومحورا في تلك « الموسوعة » التى كانت حديث باريس المثقفة بأسرها . وقد قال فولتير عنه ، في لحظة تواضع ، إنه « أعظم كتاب القرن »^(٩٦) ومع ذلك لم يؤت شيئا من فرص فولتير . فقد ولد ولادة غير شرعية ، وأنكرته أمه مدام دتانسان ، ولم ير أباه منذ طفولته . وعاش بوجوازيا بسيطا في بيت الزجاج روسو . وكان وسيما ، حسن الهندام ، جهم الأدب ، مرحا أحيانا ، في وسعه أن يخوض في أى موضوع مع أى متخصص تقريبا ، ولكن في وسعه أيضا أن يخفى علمه وراء واجهة من القصص ، والتقليد الساخر ، والنكتة الدكية . وفيما عدا ذلك لم يصلح العالم إلا قليلا . فقد أثر استقلاله على رضى الملوك والملكات ، وحين قامت مدام دودفان بحملة لتدخاها الأكاديمية الفرنسية أبى أن يضمن الحصول على صوت إينو بتقريظ كتابه « مختصر كرونولوجى لتاريخ فرنسا » (١٧٧٤) وكان فيه عرق من الهجاء جعل فكاهته لاذعة أحيانا ؛^(٩٧) فقد ينفذ صبره ، ويبيت أحيانا عنيفا في ثورته على خصومه^(٩٨) ، ولم يعرف قط ما الذى يجب أن يقوله أو يفعله حين ينفرد بالنساء ، ومع ذلك فإن حيائه اجتذبهن ، كأنما بتحديه لقوة تأثير مفاتهن .

وقد راع مدام دودفان منه في أول لقائها به (١٧٤٣) اتساع ذهنه ونصوع تفكيره . وكانت يومها في السادسة والأربعين ، وهو في السادسة والعشرين . فخبثته « قطها الوحشي »^(٩٩) ولم تكتف بدعوته لصالونها بل دعتة أيضاً إلى تناول الطعام معها على انفراد ، وأقسمت بأنها على استعداد « لتنام اثنتين وعشرين ساعة من الأربعة والعشرين ، ما دمنا ننفق الساعتين الباقيتين معاً »^(١٠٠) وكان قد انقضى على هذه الصداقة الحميمة أحد عشر عاماً حين دخلت جولى حياتهما .

كان هناك رباط طبيعي بين الابن الطبيعي والابنة الطبيعية . وقد دون دالامبير هذه الحقيقة وهو يسترجع ذكراها فيما بعد :

« كان كلانا يفتقد الوالدين والأسرة ، وإذ عانينا الهجر ، وسوء الطالع . والشقاء منذ ولادتنا ، بهذا أن الطبيعة بعثت بنا إلى العالم ليجد الواحد منا صاحبه ، وليكون له كل ما افتقده ، ولنقف معاً كأننا صنفصافتان ، أحنتهما العاصفة دون أن تهتملعهما ، لأنهما في ضعفهما تشابكت أغصانهما »^(١٠١) .

وأحس بهذا الانجذاب لأول نظرة تقريباً . كتب لها عام ١٧٧١ يقول : — « إن الزمن وطول الألفة يبليان كل الأشياء ، ولكنهما عاجزان عن أن يمسا حبي لك ، وهو حب الهمته قبل سبعة عشر عاماً »^(١٠٢) ومع ذلك تريت تسع سنوات قبل أن يفصح عن غرامه ، وحين فعل كان ذلك بطريقة غير مباشرة . كتب لها من بوتسدام في ١٧٦٣ يقول : أن له في رفض دعوة فردريك له أن يصبح عميداً للأكاديمية برلين للعلوم « ألف سبب ، منها سبب لا يخطر لك أن تحزريه »^(١٠٣) وتلك زلة في الذكاء تستغرب عن دالامبير : فهل في الوجود امرأة لا تعرف أن رجلاً من الرجال يهواها ؟

وأحست مدام دودفان ذلك الود المتزايد بين ضيفها المقدر وأبنة أخيها المحروسة ، كذلك لحظت أن جولى تغدو محور النقاش والاهتمام في الصالون . وظلت برهة لا يبد منها لوم ولا عتاب ، ولكنها في رسالة إلى فولتير (١٧٦٠) أبدت ملاحظات مرة حول دالامبير . وسمحت لصديق أن يقرأ على ضيوفها

قبل وصول دالامبير جواب فولتير الذى أشار إلى ملاحظاتها . وإذا دالامبير
يدخل بمجرد البدء فى القراءة ويسمع الفقرة الثامنة ، فضحك مع الضاحكين ،
ولكنه تأذى ، وحاولت المركيزة استرضاءه ، ولكن الجرح لم يندمل ، فلما
زار فردريك عام ١٧٦٣ كانت رسائله يومية تقريبا إلى الأنسة ديليسبناس ،
نادرة إلى المدام . وبعد عودته من باريس ألف أن يزور جولى فى شقتها قبل أن
يهبط إلى الصالون ، وكان طورجو أو شاستلوكس أو رمارمونتييل يصحبونه
أحيانا فى هذه الزيارات الحميمة . وشعرت المضيفة العجوز أن الذين أعانهم
وأحبهم يخونونها . ونظرت الآن إلى جولى كأنها عدو لها ، وكشفت عن
شعورها بطرق مثيرة كثيرة — كفتور لهجتها فى الحديث معها ، ومطالبها الثقافية
منها ، وتذكيرها إياها بين الحين والحين باعتمادها عليها . أما جولى فقد ازداد
ضيقها يوما بعد يوم بهذه « العجوز العمياء الغضوب » ، وبالزمامها
بأن تكون دائما فى متناولها أو على مقربة منها لتلبى حاجة المركيزة فى أية ساعة .
وزادها مرور الأيام تعاسة على تعاسة ، إذ كان لكل يوم لدعته . وقد كتبت
فى تاريخ لاحق تقول « كل ألم يتغلغل إلى الأعماق ، أما اللذة فطائر سريع
الفرار »^(١٠٤) وفى ثورة أخيرة من ثورات غضب المدام اتهمتها بخداعها
فى بيتها وعلى نفقتها . وردت جولى بأنها لم تعد قادرة على العيش مع من تنظر
إليها هذه النظرة . وفى يوم من أوائل مايو ١٧٦٤ غادرت المنزل بحثا عن
مسكن آخر . أما المركيزة فقد جعلتها قطيعة لا رجعة فيها باصرارها على أن
يختار دالامبير بينها أو بين جولى ، فغادر البيت ، ولم يعد إليه قط .

وبدا حينئذ أن الصالون القديم قد جرح جرحا مميتا بهذين البترين . وواصل
معظم رواده زيارة المركيزة ، ولكن العديد منهم — كالمرشالة دلكسمبورج ،
والدوقة دشايتون ، والكونتيسة دبوفليه ، وطورجو ، وشاستلوكس ، بل
حتى إينو — ذهبوا إلى جولى ليعربوا عن تعاطفهم واهتمامهم المستمر بها ،
وتقلص الصالون فلم يحو غير قدامى الأصدقاء والأوفياء منهم ، والوافدين
الجدد الذين يسعون إلى التميز والطعام الطيب . وقد وصفت المدام هذا التغيير
فى ١٧٦٨ فقالت :

« كان هنا بالأمس إثنا عشر شخصا ، وأعجبت بمختلف أنواع الحديث المتألف ودرجاته . كنا جميعاً مغفلين كبارا ، كل في بابه ... كنا مملين غاية الإملال . وانصرف الإثنا عشر جميعاً في الساعة الواحدة ، ولكن أحداً منهم لم يخلف وراءه أسفا ... ان بون — ديفيل صديقي الوحيد ، وهو يقتلني ضجراً ثلاثة أرباع الوقت » . (١٠٥)

إنها لم تكن للحياة أى حب على الإطلاق منذ انطفأ نور عيذها ، أما الآن ، وبعد أن انفض عنها أعز أصدقائها ، فقد تردت في حالة من القنوط الساخر الذى لا شفاء منه . فلعلت اليوم الذى ولدت فيه كما فعل أيوب « إن عمى وشيخوختى هما أقل ما رزئت به من أحزان ... فليس هناك غير خطب واحد ... هو أنى ولدت . » (١٠٦) وسخرت من أحلام الرومانسيين والفلاسفة على السواء — لا من « هلويز ، وروسو وقسيسه السافواوى » فحسب ، بل من حملة فولتير الطويلة في سبيل « الحقيقة » قالت : « وأنت يا مسيو فولتير . عاشق الحقيقة المعلن ، قل لى بأمانة ، هل وجدتها ؟ إنك تحارب الأخطاء وتهدمها ، ولكن ماذا تحل محلها ؟ » (١٠٧) لقد كانت شكاكه ، ولكنها أثرت الشكاكين المعتدلين أمثال مونتيني وسانت — إفرمون على الثوار العدوانيين كفولتير وديدرو .

ونحالت أنها نفضت يديها من الحياة ، ولكن الحياة لم تنفض يديها منها تماماً . فقد بعث صالونها بعثاً متقطعا خلال وزارة شوازيل ، حين تجمع أقطاب الحكم حول المركيزة العجوز ، وجاءت صداقة دوقة شوازيل الرقيقة ببعض النور الذى أشرق وسط تلك الأيام الخالكة . وفى ١٧٦٥ بدأ هوراس ولبول يختلف إلى ندواتها ، وشعرت نحوه شيئاً فشيئاً بمحبة غدت آخر تشبث مستميت لها بالحياة . ونرجو أن نلقى بها ثانية في ذلك التجسد الأخير المذهل .

الآنسة داليسبيناس

اختارت جولى لمسكنها الجديد بيتا ذا طوابق ثلاثة عند ملتقى شارع بلشاش بشارع سان — دومنيك ، ولم يكن يبعد غير مائة ياردة من بيت المركيزة الديرى .

ولم تبلغ معاناتها مبلغ الإملاق ، فقد تلقت بالإضافة إلى عدة معاشات صغيرة ، معاشين مقدارهما ٢,٦٠٠ جنيه من « دخل الملك (١٧٥٨ و ١٧٦٣) » ، بناء على إلحاح شوازيل فيما يبدو ، ثم إن مدام جوفران وهبتها بناء على اقتراح دالامبير راتبين سنويين منفصلين مقدارهما ألفا جنيه وألف كراون . وأعطتها المرشالة دلكسمبورج طبقا كاملا من الأثاث .

وما إن استقرت جولى فى مسكنها الجديد حتى أصيبت بالجدرى إصابة شديدة . كتب ديفد هيوم إلى مدام دىوفليه يقول « أن الأنسة دليسيناس مريضة مرضاً خطراً ، ويسرنى أن دالامبير نسى فلسفته فى لحظة كهذه » (١٠٨) والواقع أن الفيلسوف كان يمشى مسافة طويلة كل صباح ليقوم على خدمتها إلى جوار فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل ، ثم يعود إلى حجراته فى بيت مدام روسو . وتماثلت جولى للشفاء ، ولكنها باتت ضعيفة عصبية باستمرار وغلظت بشرتها وشابتها الندوب . وفى وسعنا أن نتصور ما يعنيه هذا للمرأة لم تتجاوز الثانية والثلاثين ولم تزوج بعد .

وقد شفيت فى الوقت المناسب لتغنى بدالامبير الذى لزم فراشه فى ربيع ١٧٦٥ إثر ألم فى معدته أشرف به على الهلاك . وراع مارمونتيل أن يراه ساكنا « حجرة صغيرة سيئة الإضاءة ، سيئة التهوية ، تحوى سريرا ضيقا جدا كأنه للنعش . » (١٠٩) وعرض صديق آخر هو المالى قاتلية على دالامبير أن يستعمل بيتا فسيحا قرب التامبل . وارتضى الفيلسوف الآن فى أسف أن يترك المرأة التى آوته وأطعمته منذ طفولته . وقال دوكلو فى دهشة « يا لليوم المدهش ! لقد فطم دالامبير ! » وكانت جولى تقطع الرحلة كل يوم إلى مسكنه الجديد وترد له رعايته الأخيرة لها باخلاصها الفياض . فلما نقه إلى حد يتيح له التحرك رجته أن يشغل بعض الحجرات فى الطابق الأعلى من بيتها ، فذهب فى خريف ١٧٦٥ ، ودفع لها إيجارا معتدلا . ولم ينسى مدام روسو ، فكان يزورها كثيرا ، ويقتسم معها بعض إيراده ، ولا يكف عن الاعتذار عن انفصالهما « أيتها الحاضنة المسكينة ، يا من تحبيننى أكثر مما تحبين أبنائك ! » (١١٠)

وزعمت باريس حينئذ أن جولى خليلته . وأيدت المظاهر الزعم . فقد كان دالامبير يتناول طعامه معها ، ويكتب لها الرسائل ، ويدير لها أعمالها ، ويستثمر لها مديخراتها ، ويجمع لها إيراداتها . وكانا أمام الناس يظهران معا على الدوام ، وما دار بخلد مضيف أن يدعو الواحد دون صاحبه . ولكن شيئا فشيئا بدأ القوم — حتى المتقولون منهم — يتبينون أن جولى لا هى بالخليلة ولا الزوجة ولا العاشقة لدالامبير ، إنما هى مجرد أخت وصديقة . ويلوح أنها لم تدرك قط أن حبه لها كان كاملا وإن لم يستطع أن يعرب عنه ، وتقبلت السدتان جوفران ونكير — وكلتاها مضرب المثل فى الفضيلة — هذه العلاقة بين دالامبير وجولى على أنها حب أفلاطونى . ودعت صاحبة الصالون العجوز كليهما لنلتوتها .

وكان إمتحانا قاسيا لعطف الأم الذى أبدته مدام جوفران نحو الأنسة دليسيناس . ألا يصدر عنها أى احتجاج حين افتتحت هذه صالونا خاصا بها ذلك أن جولى ودالامبير كانا قد صنعا من الأصدقاء عددا بلغ من الكثرة ما ملأ قاعة استقبالها كل يوم تقريبا من الخامسة إلى التاسعة بصفوة الزوار رجالا ونساء ، وكلهم تقريبا ذائع الصيت أو رفيع المرتبة . وكان دالامبير يقود الحديث ، وجولى تضىئ على الندوة كل مفاتن الأنوثة ودفء الضيافة . ولم يقدم فيها غداء أو عشاء ، ولكنها اشتهرت بأنها أعظم صالونات باريس حفزا للعقول ، اختلف إليها طورجو ، ولومينى دبرين ، اللذين سيراقيان سريعا إلى مكان مرموق فى الحكومة ؛ ونبلاء مثل شاستلوكس وكوندورسينه ، وأخبار مثل بوامون وبواجيلان ، وشكاكون مثل هيوم وموزيلليه ، ومؤلفون مثل مابليه ، وكوندياك ، ومارمونيل ، وسان — لامبير . حضروا أول الأمر ليروا دالامبير ويستمعوا إليه ، ثم ليحظو بتلك المهارة المتعاطفة التى كانت جولى تستدرج بها كل ضيف ليتجلى فى ميدان تفوقه الخاص . ولم يحظر أى موضوع هنا ، فكانت تناقش أدق مشكلات الدين أو الفلسفة أو السياسة ، ولكن جولى — التى دربتها مدام جوفران على هذا الفن — عرفت كيف تهديء من ثائرة الثائرين وترد النزاع نقاشا . وكانت الرغبة فى عدم الإساءة إلى المضيفة الرقيقة هى القانون غير المكتوب الذى بعث النظام فى هذه الحرية . وفى نختام حكم لويس الخامس عشر كان صالون الأنسة دليسيناس

في رأى سانت - بييف ، « أكثر الصالونات رواجاً ، وأحفلها بالزوار المتشوقين إليه ، في جيل كثر فيه الأملعون » (١١١)

ولم يقدم صالون آخر لزواره مثل هذا الإغراء المزدوج ، فقد بدأت جولى رغم ندوب وجهها وعدم شرعية نسبها تصبح الحب الثانى لعشرة أو يزيد من الرجال المرموقين . وكان دالامبير في قمة قدراته . يقول جريم :

« كان في حديثه كل ما يعلم العقل ويمتعه . فكان يسلم نفسه بيسر ورغبة لأى موضوع يدخل السرور على نفوس أكثر السامعين ، مدخلاً فيه معيناً لا يكاد ينضب من الأفكار ، والنوادر ، والذكريات العجيبة ، وما من موضوع أياً كان جفافه أو تفاهته في ذاته لم يملك سرا لإضفاء المتعة والطرافة عليه . وكان في كل فكاهاته أصالة رقيقة عميقة . » (١١٢)

ثم استمع إلى ديفد هيوم يكتب إلى هوراس ولبول : « أن دالامبير رفيق لطيف المعشر كامل الفضائل . وقد دل على ترفعه عن المنفعة الشخصية والطمع الباطل برفضه عروضاً من قيصرية روسيا وملك بروسيا وله خمسة معاشات ، أولها من ملك بروسيا ، وثانيها من ملك فرنسا ، والثالث يتلقاه بوصفه عضواً في أكاديمية العلوم ، والرابع بوصفه عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، والخامس من أسرته . ولا تزيد جملتها كلها على ستة آلاف جنيه في العام . وهو يعيش على نصف هذا المبلغ عيشة كريمة ، ويهب النصف الآخر للفقراء الذين له بهم صلة . والخلاصة أنى لا أكاد أعرف رجلاً ، إلا القليلين ، .. يفضلونه نموذجاً للشخصية الفاضلة الفلاسوفة . » (١١٣)

أما جولى فكانت نقيض دالامبير في كل شيء خلا يسر الحديث ورقته . ولكن بينما كان هذا الموسوعى واحداً من آخر أبطال حركة التنوير ، ينشد العقل والقصد في الفكر والعقل ، كانت جولى ، بعد روسو ، أول صوت واضح للحركة الرومانسية في فرنسا ، مخلوقاً (في عبارة مارمونتيل) « أوتى أنشط تصور ، وأحر روح ، وأشد الخيالات تأججاً منذ سافو » (١١٤) . فلم يفقها أحد من الرومانسيين ، في عالم الحقيقة أو القصص لا هلويز روسو ، ولا روسو ذاته ، ولا كلاريسية ريتشر دسن ، أو مانون بريفوست - في رهافة

الحس أو حرارة حياتها الباطنة. كان دالامبير مرضوعيا، أو حاول أن يكون كذلك، أما جولى فكانت ذاتية إلى حد الاستغراق الأناني في النفس أحيانا. ومع ذلك « كانت تشارك المحزونين ألمهم ، وقد جاهدت جهادا محمودا لكي ينتخب شاستلوكس ولا هارب عضوين في الأكاديمية ، ولكنها حين أحبت نسيت كل شيء ، وكل إنسان آخر . نسيت أولا مدام دودفان ، وثانيا دالامبير نفسه .

ذلك أنه في ١٧٦٦ دخل الصالون نبيل شاب هو المركز خوزيه دمورا إى جونزاجو ، ابن السفير الأسباني ، وكان في الثانية والعشرين ، وجولى في الرابعة والثلاثين وكان قد زوج في الثانية عشرة من فتاة في الحادية عشرة ، ماتت عام ١٧٦٤ . وأحست جولى بعد قليل بسحر شبابه ، وربما بسحر ثرائه . وسرعان ما نضح تعلق الواحد منهما بصاحبه فتعاقدا على الزواج . فلما سمع أبوه بالأمر أمره بأداء واجبه العسكري في أسبانيا. وذهب مورا ، ولكنه لم يلبث أن استقال من وظيفة الضابط . وفي يناير ١٧٧١ بدأ يبصق الدم ، فذهب إلى بلنسية التماسا للراحة ، فلما لم يشف هرع إلى باريس وجولى . وأتفقا معا أياما سعيدة كثيرة ، مما روح عن بلاطها الصغير وأثار في نفس دالامبير ألما دفينا . وفي ١٧٧٢ استدعى السفير إلى أسبانيا ، فأصر على أن يصحبه ابنه . ولم يرض الأب ولا الأم بزواجه من جولى ، فانفصل فورا عنهما وبدأ رحلته إلى الشمال ليعود إليها ، ولكنه مات بالسل في بوردو في ٢٧ مايو ١٧٧٤ . في ذلك اليوم كتب لها يقول « كنت في طريقى إليك ، ولا بد أن أموت ، ياله من قضاء بشع ! ... ولكنك أحببتني ، وتفكرى فيك ما زال يسعدنى ، إننى أموت في سبيلك ! » ونزعوا من أصابعه خاتمين ، احتوى أحدهما على خصلة من شعر جولى ، ونقش على الآخر هذه الكلمات « كل الأشياء تزول ، ولا يبقى غير الحب » وكتب دالامبير الشهم عن مورا يقول « إننى آسف لشخصى على فقد ذلك الرجل الحساس الفاضل الخلق ، الرفيع الفكر ، أكمل من عرفت من الناس ... وسأذكر ما حييت تلك اللحظات الغالية التى أحبت فيها نفس بهذا الطهر والنبيل والقوة والتهديب الاختلاط بنفسى » . (١١٦)

ومزق نبأ موت مورا قلب جولى ، وزاد الخطب فداحة أنها منحت حبها

في الوقت نفسه لرجل آخر . ذلك أنها في سبتمبر ١٧٧٢ التقت باكونت جاك — أنطوان دجيبيير ، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما ، والذي كان قد أبلى بلاء حسنا في حرب السنين السبع . أضف إلى ذلك أن كتابه « دراسة شاملة للتكتيك » أشاد به القواد ورجال الفكر رائعة في هذا الميدان ، وقد قدر لهذا الكتاب أن يحمل نابليون نسخته منه عليها تعليقات بخط يده خلال حملاته جميعا . و « المقال التمهيدى » للكتاب الذى ندد بجميع الأنظمة الملكية صاغ المبادئ الأساسية لسنة ١٧٨٩ قبل اندلاع الثورة بعشرين عاما . وفي وسعنا أن نحكم على الاعجاب الذى أغرقه الناس على جيبيير من موضوع اختيار للنقاش في أحد الصالونات الكبرى : « أيهن تحسد أكثر من غيرها : أم المسيو دجيبيير ، أم أخته ، أم خليلته ؟ »^(١١٧) وكان له بالطبع خليله — هى جان دمونسوج ، آخر وأطول غرام له . وقد حكمت عليه جولى حكما قاسيا في لحظة مرارة إذ قالت : —

« إن الاستخفاف ، بل القسوة ، التى يعامل بها النساء مصدرها قلة اعتباره لهن ... فهو يراهن معاثبات ، مغرورات ، ضعيفات ، كاذبات ، طائشات ، واللاتى يحسن فيهن رأيه يراهن متعلقات بالخيال ، ومع أنه يضطر إلى الإقرار بوجود خصال حميدة في بعضهن ، فهو لا يقدرهن لهذا السبب تقديرا أعلى ، بل يرى أن فيهن رذائل أقل ، لا فضائل أكثر . »^(١١٨)

على أنه كان وسيما ، وسلكه كاملا ، وحديثه يجمع بين الغنى والشعور ، وبين العلم والوضوح ، قالت مدام دستال « كان حديثه أكثر ما عرفت تنوعا ، وحيوية ، وغنى . »^(١١٩)

ورأت جولى أنها محظوظة بايتار جيبيير لندواتها . وافتن الواحد منهما بشهرة صاحبه ، فنشأت بينهما علاقة أصبحت من جانبه غزوة عارضة ، ومن جانبها غراما قتالا . وهذا الغرام القتال هو الذى أحل رسائلها إلى جيبيير مكانا مرموقا في الأدب الفرنسى وبين أكثر وثائق العصر كشافا . ففيها أكثر حتى مما في « جولى أو هلويز الجديدة » لروسو (١٧٦١) ، تلقى إرهابات لحركة الرومانسية في فرنسا تعبيرها الحنى .

وفي أول رسالة باقية إلى جيبيير (١٥ مايو ١٧٧٣) نراها واقعة في حبائل غرامه ، ولكن كان يمزقها تأنيب الضمير لانتهاكها ميثاق الوفاء لمورا . فكتبت لجيبيير وهو راحل إلى ستراسبورج تقول :

رباه ! بأى سحر ، وبأى قدر ، استطعت أن تفتنى ؟ لم لم أمت في سبتمبر ؟ كان يمكن أن أموت آنشد فأعنى من اللوم الذى ألوم به نفسى الآن .. إننى أشعر بهذا وآأسفاه ، إننى ما زلت أستطيع الموت فى سبيله ، فما من مصلحة لى أضن ببلها له ... أواه ، أنه سيفصح عني ! لقد عانيت كثيراً جداً ! ولقد أضنى جسدى وروحي طول ما ألم بى من حزن . وطاش عقلى حين تلقيت خطابه . فى ذلك الحين رأيتك أول مرة ، فى ذلك الحين تسلمت نفسى ، فى ذلك الحين أدخلت عليها السرور ، ولست أدري أيهما كان أحلى — أن أشعر بذلك السرور ، أو أن أدين به لك . (١٢٠)

وبعد ثمانية أيام سقطت كل أسباب دفاعها : « لو كنت صغيرة جميلة ، فاتنة جداً ، لما أعيانى أن أثبتن الكثير من الافتعال فى مسلكك معى ، ولكن بما أننى لست من هذا كله فى شيء ، فأنى أجد فى مسلكك عطفاً وشرفاً أكسبك نصراً على روحى إلى الأبد . (١٢١)

وكانت أحياناً تكتب بكل التحرر الذى كتبت بها هلويز لأبيلاز :

« أنت وحلك الذى يستطيع فى هذا الكون أن يملك كيانى ويتربع فيه .. وقلبي ، وروحي ، لا يمكن أن يملأهما سواك إن باني لم يفتح اليوم مرة دون أن يخفق قلبي ، ومرت بى لحظات كنت أخشى فيها أن أسمع أسمك ، ثم كان يحطم قلبي ألا أسمعه . أن كثيراً من المتناقضات ، وكثيراً من الانفعالات المصطرعة ، صادقة ، وتفسرها كلمة واحدة : أحبك . (١٢٢)

وزاد الصراع بين الغرامين من الاضطراب العصبى الذى ربما كان مصدره تعطش آمالها إلى تحقيق المرأة لذاتها ، واستهدافها المتزايد للسل ، وكتبت إلى جيبيير ٦ يوليو ١٧٧٣ تقول :

« إن روحك رغم اضطرابها ليست كروحي التى لا تفتأ مترددة بين

التشنج والاكتئاب . وأنا أتعاطى السم (الأفيون) لأهدىء نفسى . وأنت ترى
أننى عاجزة عن أن اهدىء نفسى ؛ فأرشدنى ، وقونى ، وسأصدقك ،
وستكون سدى . (١٢٣)

وعاد جيبيير إلى باريس في أكتوبر ، وقطع علاقاته مع مدام دمونسوج ،
وباح بحبه لجولى . فقبلته شاكرا ، وأسلمت له جسدها - فى الحجرة المؤدية
لمقصورتها فى الأوبرا (١٠ فبراير ١٧٧٤) (١٢٤) وقد زعمت فيما بعد أن هذه
الفعلة التى اقترفتها وهى فى الثانية والأربعين ، كانت أول زلة لها من « الشرف »
و « الفضيلة » (١٢٥) ولكنها لم تنح على نفسها باللوم :

« أتذكر الحال التى وضعتنى فيها ، والتى اعتقدت أنك تركتنى عليها ؟
حسنا أود أن أقول لك أننى بعد أن أفقت سريعا ، قمت ثانية (والكلمتان
كتبتهما بحروف مائلة) ورأيت ذاتى غير هابطة عن مقامى قيد أعمله وربما
تعجب لأن آخر الدوافع التى جذبتنى إليك هو الوحيد الذى لا يكتفى عليه
ضميرى فبذلك الاستسلام ، بتلك المرتبة النهائية من نكران نفسى وكل
مصلحة شخصية لى ، أثبت لك أنه ليس هناك غير خطب واحد فى الأرض
لا طاقة لى باحتماله - وهو أن أغضبك وأفقدك . فذلك الخوف يجعلنى أبدل
لك حياتى . » (١٢٦)

ونعمت حيا بنشوات السعادة . وكتبت إليه (لأنهما أخفيا عن الناس
علاقتهما وسكن الواحد بعيدا عن صاحبه) . لقد ظللت أفكر فىك طوال الوقت .
وأنا مستغرقة فىك استغراقا يجعلنى أفهم شعور العابد نحو إلهه . « (١٢٧) أما
جيبيير فلم يكن بد من أن يمل غراما يسرف هذا الاسراف فى سكب نفسه
دون أن يترك لقوته أى تحد . وسرعان ما راح يهتم بالكونتيسة ديوفليه ،
ويستأنف غرامه بـ مدام دمونسوج (مايو ١٧٧٤) . وعاتبته جولى ، فرد فى
فتور . ثم نعى إليها فى ٢ يونيو أن مورا مات فى طريقه إليها وهو يبارك اسمها .
فتردت فى حمى من الندم والحسرة وحاولت أن تسمم نفسها ، ولكن جيبيير
منعها . وراحت خطاباتهما إليه يدور أكثرها حول مورا ، ومبلغ سمو هذا النبيل
الأسبانى عن أى رجل عرفته فى حياتها . وقلت رؤية جيبيير لها وزادت لقاءاته
بـ دمونسوج . وعلبت جولى نفسها بالبقاء على الأقل خلية من خيلاته ، فكانت

ترتب له الزيجات ، ولكنه رفض عرائسها ، وفي أول يونيو ١٧٧٥ تزوج
الآنسة دكورسيل ، وكانت فتاة غنية في السابعة عشرة . وكتبت له جولي
خطابات مفعمة بالحق والاحتقار ، مختمة بتوكيدات الحب الذي لا يموت (١٢٨) .

وقد استطاعت طوال حمى غرامها كلها أن تخفى طبيعتها عن دالامبير ،
الذي خيل إليه أن سبها هو غياب مورا ثم موته . فرحب بجيبير في صالونها ،
وكون صداقة مخلصه معه ، وكان يرسل بشخصه الرسائل المختومة التي تكتبها
لعشيقها . ولكنه لحظ أنها فقدت اهتمامها به ، وأنها كانت أحيانا تستاء من
وجوده . والواقع أنها كتبت لجيبير « لولا أنه يبدو عقوقا بالغاً منى لقلت إن
رحيل دالامبير يعطيني نوعاً من السرور . إن حضوره يثقل روحي . وهو
يجعلني قلقة مضطربة النفس ، فأنا أشعر أنني غير مستحقة أبدا لصداقته وطيبة
قلبه .. » (١٢٩) فلما ماتت كتبت إلى « روحها » يقول :

« ليت شعري لأي سبب لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أحزره ، تغير فجأة
ذلك الشعور الذي كان من قبل غاية في الرقة نحوي ... إلى شعور الغربة
والنفور ؟ ما الذي صنعت مما يسىء إليك ؟ لم لم تشكى إلى إن كان لك مبرر
للكوى ؟ ... أم أنك أيتها العزيزة جولي ... قد أسأت إلى إساءة أجهلها ،
وكان محلو لي كثيراً أن اغتفرها لو علمت بها ... لقد كنت عشرين مرة
على وشك أن ألقى بنفسى بين ذراعيك ، وأن أطلب إليك أن تخبريني ما
جريرتي ، ولكنني خشيت أن تصدني هاتان الدراذان ... »

« وظللت تسعة أشهر أترقب اللحظة التي أخبرك فيها بما عانيت وما أحسست ،
ولكنني وجدتك خلال تلك الشهور أضعف من أن تحتل العتب الرقيق الذي
كان على أن أكشفك به ، واللحظة الوحيدة التي كان يمكنني فيها أن أكشف
لك في غير خفاء عن قلبي المحزون الواهن هي تلك اللحظة الرهيبة ، قبل موتك
بساعات ، حين سألتني الصفح عنك بطريقة مزقت نياط قلبي ... ولكن
عندها لم يعد فيك قوة لا للتحدث ولا للاستماع إلى ... وهكذا فقدت إلى
الأبد لحظة العمر التي كانت ستكون لي أغلى اللحظات — اللحظة التي أخبرك
فيها ، مرة أخرى ، كم أنت عزيزة علي ، وكم شاطرتك محك ، وما أعمق

رغبتي في أن أنهى آلامي بك ، وددت لو بذلت كل ما بقي لي من لحظات عمري لقاء تلك اللحظة الواحدة التي لن تتاح لي أبدا ، تلك التي ربما كنت أستعيد بها حنانك إذ أكشفك بكل ما في قلبي من حنان لك . « (١٣٠)

وساعد لإنهيار حلم جولي السل على الفتك بها ، ودعى لعيادتها الطبيب بورديو (الاي التقالينا به في قصة ديدرو «حلم دالامبير») ، فصرح بأنه لا أمل في شفاؤها . ولم تبرح فراشها منذ أبريل ١٧٧٦ . وكان جبير يذهب لزيارتها كل صباح ومساء . ولم يكن دالامبير يترك العناية بها إلا لينام . وكان الصالون قد توقف ، لولا حضور كوندورسيه ، وسوار ، ومدام جوفران الطبية ، التي كانت هي ذاتها مشرفة على الموت . وفي أيامها الأخيرة أبت جولي أن تسمح لجبير بزيارتها ، لأنها لم تشأ أن تدعه يرى كيف شوهت التشنجات وجهها ، ولكنها كانت ترسل العديد من الخطابات ، وأكد لها هو أيضا حبه : « لقد أحبتك منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها ، أنك أغلى عندي من كل شيء في هذه الدنيا . « (١٣١) فكان هذا ، ووفاء دالامبير الصامت ، وقلق أصدقائها عليها ، العزاء الوحيد لها في آلامها . وكتبت وصيتها ، التي عينت دالامبير منفذا لها ، وعهدت إليه بكل أوراقها وأمتعتها الشخصية (٥) .

وجاء أخوها المركز دفيشي من برجندية ، وألح عليها في أن تتصلح مع الكنيسة وكتب إلى الكونت دالبون « يسعدني أن أقول لك إنني أقنعتها بأن تتناول القربان على الرغم من « الموسوعة » كلها ، وفي مواجهتها « (١٣٢) .

وأرسلت كلمة أخيرة إلى جبير : « يا صديقي ، أنني أحبك ... وداعا » وشكرت دالامبير على وفائه الطويل ، وتوسلت إليه أن يغفر لها جحودها ، وماتت في تلك الليلة ، في الساعات الباكورة من يوم ٢٣ مايو ١٧٧٦ . ودفنت في اليوم نفسه ، من كنيسة سان - سوليس ، « دفن الفقراء » كما رغبت في وصيتها .

(*) احتفلات زوجة جبير بخطابات جولي إليه ، وقد نشرت في ١٨١١ .